قصص وحكايات

العدد الأول

لوحة: مصطفى عطيفي

مجموعة مؤلفين

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

قصص وحكايات

بين أيديكم العدد الأول، من السلسلة القصصيّة «قصص وحكايات» وتصدر إن شاء الله، عن "دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني" مرتين في العام إلكترونيّاً؛ باختيار القصص الفائزة في المسابقة القصصيّة المنشورة على صفحة الدار على فيس بوك وصفحات الموقع؛ دعمًا للكُتّاب الجدد الموهوبين من جميع أنحاء الوطن العربي، ولإظهارهم وتعريف القراء بهم، وتقديم النصائح لمن لم يحالفهم الحظ، ليلحقون بالأعداد اللاحقة.

الكتاب مُتاح مجانًا للتحميل بموقع الدار، وبعض المواقع الصديقة، التي تدعم الكُتّاب الشباب... بالتوفيق للجميع.

العنوان: قصص وحكايات

النوع الأدبي: مجموعة قصصيّة

المؤلف: مجموعة مؤلفين

المُدقق اللُغوي: فريق الدار & بعض الكتّاب بأنفسهم

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج: فريق الدار

تصميم الغُلاف: فريق الدار

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي: أ: مصطفى عطيفي _ مصر

سنة النشر: 2019

الحالة: حصرياً

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار:14

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019 الدار مجرَّد مشروع تطوعي غير ربحي، كل خدماته مجّانيّة، يهدف إلى دعم الكتّاب، وخاصة الكتّاب الجدد، بنشر كتبهم إلكترونيًاً وعلى صفحات موقع الدار. الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الصفحة الجروب الموقع

فهرس القصص

مدينة الأنوار .. عبد الحكيم أوكفيل .. الجزائر..... ٥
أسطورة الرمال .. محمد بن الظاهر .. المغرب..... ١٢
غُربة .. سوار بوعبانة .. تونس..... ٢١
المُذنِب .. ياسمين بعطوش ... الجزائر..... ٢٩
مُداهمة .. حسن كشاف .. المغرب..... ٣٥
قصتي القصيرة .. نصير العراقي .. العراق..... ٣٩
الرغبة المجسَّدة في الانتقام .. أشرف الزبيري .. المغرب..... ٤٣
بداية جنائزيّة .. لميس محمد وهبي .. سوريا..... ٥٠
لعنة الحب .. نسمة سقوالي .. الجزائر..... ٥٣
اِنكسار .. إيمان مصطفى/ رمضان سلمي برقي .. مصر..... ٥٩
أنا والسيد: دونكان .. محمد حليم .. مصر..... ٦٨
السور .. هشام وهبي .. المغرب..... ٧٣
القمر الدامي .. رمضان سلمي برقي .. مصر..... ٧٨
ورقة .. أحمد جمال الدين رمضان .. مصر..... ٨٤
خطأ رومانسي .. طارق قديس .. الأردن..... ٨٨
نوبة هستيريا .. رحمة خطار .. الجزائر..... ٩٥
عودة ثم غياب .. رضوى اسماعيل .. مصر..... ١٠٠
رقاص أنفال .. حكاية صبيّة .. الجزائر..... ١٠٣
البحث عن زوج على الإنترنت .. عائشة بناني .. المغرب..... ١٠٦
الحصاد .. فاطنة الباي .. الجزائر..... ١١٣

مدينة الأنوار .. عبد الحكيم أوكفيل .. الجزائر

خرجتُ من منزلي كالعادة، وعلى أوجه المارّين ابتسامات صريحة، ضحكات هنا و هناك خفيفة، وسط لوحة خضراء لأشجار تعانق البشر، الطرقات، و تغازل بأناملها السماء، و كأن الطريق زجاج مرمريّ، برّاق متألّق، شرفات كل عمارة تطل علينا من فوق، تتدلّى منها عناقيد الزهور إلى أسفل، تدغدغ بخجل رؤوسنا و رقابنا، أمرّ بجانب أحد المنازل فتخطفني رائحة الياسمين، أتذكر أني كمن أصنع عقودا منها، تسحرني فأرضى بذاك السحر يأخذني، فلا أريده أن يعيدني.

في هذه المدينة لطف الناس، حبّهم و تعاونهم يمنعك عن أذيتهم، يجعلك تستحيي من أن تخدع أو تكذب، كلّ ما تريد موجود، ما تتخيّله ممكن، يبدو ذلك حلما، لكنّه واقع و حقيقة هنا، لا يمكن للحزن أن يتسلّل إلى الأنفس، لا آلام و لا معاناة، أنت هنا حر، تأخذ ما تريده دون أن تدفع، تريد امتلاك شيء فهو لك، لن يعترض أحد، درب خيال؟ صدِّق، أنت في مدينة " الأنوار".

أنا سعيدة، أعيش هنا منذ اثني عشر سنة، لم أر أحدا يتعذّب، يتألم أو يتذمّر من قبل، لماذا؟ لأنه لا وجود للأحلام، كل ما تتخيّله يتحقّق، أريد أن أكون معلّمة حينما أكبر،

و سيكون لي ذلك، لأنّها مدينة الحقيقة الكاملة، المدينة التي إذا أردت فيها وجدت، و إن عزمت فيها أصبت، آمالي كبيرة، و صارت أكبر الآن، أنا حقّا سعيدة.

في مدينة ناطحات السحاب العملاقة، طرق كثيرة متشابكة، متباعدة متقاربة، نشاط و حيويّة، عمل و اجتهاد، الكلّ راضٍ بحياة لا يمكن أن تكون أفضل، لكن، أليس غريبا؟ أليس من العجيب أن يستمرّ النّعيم نعيمًا؟

أمور أخرى أثارت فضولي، جعلتني أتساءل، ألا تنتهي حياة البشر هنا؟ ألا يموتون؟ لا أعرف حتى معناه، يقولون هو آخر محطة من درب الحياة، لكن هنا، لا وجود لمقابر تأوي الموتى، أين قبور أجدادي و أفراد عائلتي الأوائل؟ و باقي سكان المدينة أين موتاهم؟ لم أفهم، كبار السن يخرجون فلا يعودون، كذلك الذين تحسبهم على مشارف الهلاك، من أهلكه المرض و سار به إلى الموت، من تعرّض لحادث مميت، حتى المرضى، لا يموتون، هم يختفون و فقط.

لا أحد يتساءل، و لا أحد يبحث، بل لا يعيرون الأمر اهتماما، أين ذهب هؤلاء و ما هو مصيرهم؟

أسأل أبي أو أمي فيقول أحدهما كما يقول الآخر:" نحن لا نموت، أنتِ في مدينة الأنوار، من ساءت حالته اختفى، أخذه النور إلى عالم آخر".

الموت حقيقة، واقع، نهاية الحياة موجودة على الأقل بحسب ما درست و تعلّمت، فكيف لا يكون في مدينة الحقائق؟ و ما هذا النور الذي يأخذ إلى عالم آخر؟

الكلّ يقرّ بنهاية الحياة، و الكلّ يتفادى الحديث عنها، الموت، أين أنت؟

أريد أن أفهم و أعرف أكثر، لكنهما يسكتاني، يمنعاني عن ذلك، تعود الكلمات تلك مرارًا:

" تعيشين بسعادة، و ستبقين كذلك، لا تبحثي عن أكثر من ذلك".

هذا الكلام بالذات دفعني إلى الشك والظنّ، إلى اعتقاد بوجود سرّ يخفيه الكلّ، مجرّد وهم؟ حماس زائد؟ كيف السبيل إلى الحقيقة إن لم أكن فيها أعيش؟ أنحيا كذبة كبيرة و نحن راضون؟

تخمّرت الأفكار و توالدت في عقل الفتاة الصغيرة، وزاد الشك على حساب اليقين، فقرّرت البحث عن جواب شاف، بالدليل المقنع، عن الحقيقة الأصلية وراء المزعومة، عن الوجه وراء القناع، عن ذاك الاطمئنان الذي افتقدته منذ أن التهمتها تلك الأسئلة عن المثالية المخيفة لهذه المدينة، لم تهنأ و لن تهنأ حتى تهدأ نفسها و تفكّ أخيرا هذا اللّغز.

بحثتُ عن أثر لمن سبقوا، لمن اختفَوا، عن عوائلهم، عن دليل، عن أمل فيمن بقي، عن أحد يرشدني، يهديني إلى ما أريد معرفته، و لا شيء، و كأنّ الكلّ اتّفق على كلمة واحدة، ماذا أفعل ؟ ماذا أصنع الآن؟

سأضيع... بل ضعت...

و هي تمشي في المدينة ابتعدت عن حيّها، عن حدود ما كانت تعرفه منها، ابتعدت كثيرا و أنساها اليأس أنّها ابتعدت، فمشت و مشت، و قطعت مسافة خارج مدينة الأنوار، وجدت نفسها وحيدة الآن، المكان خالٍ هنا، و المدينة بعيدة هناك، انتابها الارتباك و الخوف، عليها أن تعود الآن، لكن ما هذا؟ ما هذا الشيء أمامها؟ جدار عالٍ، سور عظيم لا حدود و لا نهاية له، يمتدّ من الشرق إلى الغرب، لم تكن تدري بوجوده، ولم يتحدّث عنه أحد في المدينة، لماذا بُني؟ ما الذي يوجد خلفه؟

في تلك اللحظة تسمع صوت مروحيات تقترب، فتبحث عن مخبأ، لم تجد سوى شجرة غير بعيدة عنها، فاحتمت هناك و اختلست النّظر، تلك حوّامات عسكريّة، لونها يدلّ على ذلك، ماذا تفعل هنا؟ تلك الحوّامات لا تظهر سوى في حالات الإنقاذ، و كذلك تحمي المدينة من كل اعتداء خارجيّ، هكذا علّموهم في المدارس دون الدخول في التّفاصيل، من المعتدي؟ أهي المدينة الوحيدة الموجودة؟ أهذه المدينة وطن بحدّ ذاته؟ إن كان هذا الجدار هو الحد الفاصل، أيعني ذلك أنّه الأخير؟ ماذا يوجد خلفه؟ مدن أخرى غير مدينة الأنوار؟ أوطان أخرى؟ عالم آخر؟

تشجّعت و عزمت أن تجتازه بأيّ طريقة، بعد البحث وَجَدَتْ ثُقبًا في الجدار و قد غطّته الحشائش الطويلة، أرادتْ الخروج إلى الجهة الأخرى من خلاله فلم تستطع، كانت أكبر من أن تتسلّل خلاله، تركت الأمر على حاله، وضعت دليلا عليه وعادت إلى المنزل دون أن تتكلّم عمّا اكتشفته، دون أن تُعلم والديها، و كأنّ شيئا لم يكن.

في الغد عادت و بحذر، أخذت الطريق الذي سلكته البارحة و تعرّفت عليه من خلال معالم تذكّرتها، بصعوبة وصلت، اليوم أتت بمعول، أخذت تضرب الجدار و تكسّره، و كلّما حامت المروحيات اختفت، ثمّ عادت و أكملت ما بدأته، و هكذا إلى أن صار عبور الغار ممكنا، سريعا و بلهفة مرت خلاله، و وجدت نفسها في الجهة الأخرى، الآن وضعت رجلها في...

أرض بيضاء شاسعة، تملؤها ناطحات سحاب سوداء لا تظهر نهايتها، فقد اخترقت السحب الرمادية الكثيفة النّازلة، سكون تام مخيف، من فرط دهشتها لم تنتبه على الأشخاص الذين كانوا واقفين هنا، أمامها، ترتعب و تعود إلى الخلف، كانوا خمسة، يلبسون الأبيض، يأتيها أوسطهم، يبدوا و كأنّه قائدهم، رئيسهم، المهم، لم تستطع رؤيته بوضوح، كست وجهه ضبابية غريبة، أمّا صوته فقد كان واضحا: " لم نتوقّع أن يتبادر الشكّ في نفسك في هذا السنّ، من سبقوك ساورهم في سن الأربعين، و حتى الخمسين".

من هؤلاء؟ و ما هذا المكان؟ ماذا يفعلون خارج الجدار؟ أصلا ما الذي يقوله؟ لم أفهم.

تظهر ابتسامته خلف الضباب الذي يغطّي وجهه، يشير لأحدهم فيختفي أمام أعينهم و يظهر كالجان على متن مركبة غريبة كرويّة الشّكل، يصعد فيها و يدعوها للصعود، يبتعد الأربعة الآخرون، يختفون سريعا و كأنّهم لم يكونوا هنا منذ لحظة فقط، تركب معه

خائفة، لكنّها تريد معرفة الحقيقة، ترتفع عن الأرض و تطير بهم، تعتلي السور فكانت المفاجأة.

" مدينة الأنوار" التي عاشت فيها و ظنّتها إلى حين جنّة على الأرض، المدينة التي لا حزن فيها و لا ألم، تلك المدينة الفاضلة، مدينة السّعادة الأبدية، لم تكن سوى مختبر عملاق، هؤلاء الذين يرتدون الأبيض، هم من وضعوها هناك، كلّ شيء مزيّف، العمارات، الشّوارع، الأشجار و البساتين، كلّها من صنع البشر، حتى الأنوار التي تسطع نهارا كان مصدرها كاشفات ضوئية عملاقة تعلو أبراجا على حواف المدينة، تلك السعادة، ذلك المرح، ذلك الوئام، كل الآمال و الأحلام التي تتحقّق، كانت مجرّد برامج يتحكّم بها عن بعد، سيناريوهات مكتوبة، أدوار تم توزيعها من قبل.

سكان المدينة، آليّون مبرمجون على القيام بحركات وردّات فعل غير طبيعيّة، سبق وأن خزّنت في شرائح تسمى "بطاقات ذاكرة" لكل آلة ذاكرة محفوظة، الأحاسيس والمشاعر كانت غير طبيعيّة أيضا، لكنّها خادعة.

تذرف الطفلة دموع الحسرة والحزن، ترى في الرجل الأبيض و تسأله: " هل أنا آلة؟" يجيبها: "كلاّ أنت الكائن البشريّ الوحيد في هذه المدينة، و التجارب كانت عليك وحدك".

تسأله أيضا:" أبي و أمي؟ ليسا حقيقيّان؟"

يجيبها و ببرودة: "نعم ليسا حقيقيّان، في الأصل أنت يتيمة الأبوين، بعد الحرب الأخيرة التي قضت على البشرية لم يبق على وجه الأرض سوى هذا المختبر، و من الإناث سواك، محونا ذاكرتك الأولى و غيّرناها بأخرى لم نسجل عليها شيئا، جعلناك إنسانا آخر من جديد".

تُصعق مما تسمع، فتسأله:" لست أنا التي كنت؟".

يجيبها:" بل أنت، لكن من دون آلام الماضي، لأن ماضي البشرية كلّه آلام".

تسأله ثانية: "وما فائدة كلّ هذا؟"

ينظر فيها ثمّ يقول: "نريد أن تكوني أمّ البشرية، جرّبناك فنجحتِ، امتحنّاك فتفوّقت على صغر سنّك، لقد اكتشفت اختفاء ناس كثر، كانوا آليين انتهى دورهم في اللّعبة، لا وجود للموت في المدينة لأنهم لا يموتون، بفضل برامج مدمجة يكبرون، يشبهون البشر في تطوّرهم و ضعفهم، لكنّهم يتعطّلون، فنأخذهم خفية عن الأعين، لهذا لا وجود لمقبرة، تعمّدنا عدم وضعها فتفطّنت لذلك، تساءلتِ، بحثت و وجدت الحقيقة المخفية خلف الكذبة المصنوعة، جديرة أنت لأن تكوني "سيّدة البشر"، ستنقلين ذلك كلّه إلى الأجيال القادمة، لن نخاف على مستقبل أبنائنا، فماذا قلت يا سارة؟"

لم تستوعب جيدًا ما قاله، كثير من الأمور مرّة واحدة على عقلها الصغير، المهم أنّها وجدت ما فقدته لمدّة، اسمها الحقيقيّ: "سارة".

أسطورة الرمال .. محمد بن الظاهر .. المغرب

بدأ أديد أزير الطائرة يتعالى موذُّعًا أرض "مالبيسنا ميلان" كأنها صبيّة توطوط وتعيط لفراق فاهها حلمة ثدي أمها.

"أعزائنا المسافرين مسائكم سعيد، نيابة عن قائد الطائرة الكابتن "أنجلو" وطاقم الخطوط الجوية الإيطالية، نرحب بكم على متن الطائرة ١١١١. سنكون تحت سماء "جدة" بعد حوالي ٦ ساعات و١٠ دقائق من الآن" قال قائل من المقصورة.

شمس المغيب تتوارى للناظرين خلف السرادق، كراقصة ملهى انسلت خلف الستار عن أعينٍ سُكرت بتموجات نهد وخصر على أوتار مقامات الرست والسيكا والنهاوند يتلاعبان. فجأةً، خرجتْ مضيفة الطيران بشعرها الأشقر، وحول عنقها شال حريري أبقع ومدبجت أديم وجهها ابتسامة صفراء، بخيلاء تهيم، تذيب معها الصوان، وتهدم أعتى القلاع المُحصَّنة! خرجتْ تسأل المسافرين حاجتهم. أخرجتُ كتاباً لأشعار "لويس دي غونغورا" من محفظتي وبدأت قرائتها.

– هل أنت "ماثيو خوليان" عالم الآثار الشهير؟ قال رجلٌ ثلاثينيٌّ قصير القامة على وجهه ندوب شوهت وجهه، يدثر بقبعة سوداء ومعطفاً مع أن الجو حار.

– نعم. بشحمه ولحمه.

– ياللمصادفة الجميلة، هل لك أن توقع لي كتابك هذا؟

مدّ لي القلم وكتابي "أسطورة الرمال".

– ما اسمك يا صاح؟

– عبد الله.

– هل أنت عربي؟!

– لاونعم. كانت ابتسامته مريبة تحت وابل من الاستفهامات قد وقَّعت:

– تفضَّل، أتمنى لك قراءة ماتعة.

– شكرا لك. أدرتُ خدي عنه. هي الأسئلةُ بعيدًا قد رمتني، إلى حيث آخر رحلة للربع الخالي، إلى حب مريم، إلى لاشيئية المعنى. الذكريات لا تتقادم مع الزمن، هي فقط تربض في عتمة الذاكرة إلى أن تنتفض وتحيى من بواطن القبور و سردابها.

كان الجالس المنزوي بعيدًا عني بطابور من الجالسين، يضع نظارة سوداء يراقبني ولا يتلتل في مكانه، ولا يحيد عني قيد أنملة بصره.

"السادة المسافرين، الهبوط بعد ٥ دقائق من الآن"

علا صوت المكبر استيقضتُ لمَّا أغفت عيني عنوةً بعد العشاء. بعد توقف الطائرة، بدأ الجمع يلملم أغراض، لكن ما أبهج أساريري أن الشخص الذي كان يُهدهد إليّ أنه عميل يراقبني كان يضع نظارته خلف رأسه ويطل عبر النافذة:

– يالك من عالم نحرير أهوج يا ماثيو، انطلت عليك الخدعة، وفرائسك كلها على مر الرحلة ترتعد. قلتُ مقهقهاً.

وصلتُ عندما تبددت السحب الملبّدة لفندق "ماريوت"، حيث ينتظرني "جعفر بن سالم" رئيس "قسم المخطوطات"، وعميد "كلية الملك سعود" مرتشفاً قهوته.

– ادلهمت يا رجل، الأيام بأنيابها نهشتك. قال.

– هه، هذا أمرٌ لا يتناطح فيه عنزان يا صاح، ٧ أعوام من الفراق ليست بهين.

– مبارك يا رفيق؛ أخبروني انك حُزت على الجائزة الدولية في الأركيولوجيا. ثم أردف قائلاً: أستسمح إن كنت آخر المهنئين فأنت تدري التزاماتي التي لا تنتهي.

– وأنا سمعتُ أنك تزوجت وأنت الذي يقول أن الزواج مؤسسة رجعيّة تقنِّن الجنس.

–تفضل قهوتك يا مستر. قال نادل شاب أمرد.

– ربما حدث خطأ لم أطلب شيئاً! قلت.

– أنا يا ماثيو من طلبها لأجلك، حتماً الأيام لم ترزح حالك فقط بل ردمت كل الذكرى أيضاً. وأطلقَ بصوته الجهوري ضحكةً تقضّ مضجع أموات المغرب، بعدها انصرف النادل باحترام.

– أنت كما أنت؛ تتغير جيولوجيا الأرض، الكون برمته يرتد من حال لحالٍ، ولازالت ضحكتك كما هي.ضحكنا على حالنا برهة ثم لَحَدَ إلي قائلاً بصوت خافت يكاد يكون للهمس أشبه:

–يا ماثيو، لقد أرسلت إليك جامعتنا بتوصية من قسم الآثار والمخطوطات بالمملكة دعوة لتشرف على عملية التنقيب في مدينة عبار.. فقد وجدنا مقبرةً قديمة وبقايا مدينة أرم التي كنا نبحث عنها أنا وأنت وجايا وطاقم البحث قبل ٧سنوات.

ارتعدتْ فرائصي، لا أدري كيف انتصبَتْ الحروف في طابور بخيط كعقد اللؤلؤ في حلقي قائلًا:

– لا يمكن، أسطورة الرمال عينها؟

– إنها هي، التي كنا نبحث عنها تحت شمس آب الحارقة معاً وجايا. قال!

– بالمناسبة ما أخبار جايا؟ قلتُ له بشيئ من الحنين لأيام قُبرت وأحلام لازوردية، فقال لي بعد أن حدل مُسنداً ظهره للكرسي ورفع نظره عالياً وقد تنهد:

– لم تكن تحبني، كانت مغرمة بك، عندما نمارس الجنس على ايقاع اللثم والرفس تتأوه باسمك تحت تأثير ارتجافات اللذّة –ثم أردف– لقد هجرتني تحت قصف الأشواق ودوي مدافع الصبابة لمدن الفراغ، لقد استقرت في بلدها اليونان، وسمعت أنها أستاذة زائرة في جامعة "سالونيك".

رضرضتني فواصل الصمت الثقيلة، لم انبس ببنت شفة إلا بعد أن قال جعفر لي:

– أتذكر حبيبتك مريم العربية ذات الملامح الغجرية.

– طيفها لا يبرحُ أحلامي يا جعفر منذ واقعة ٤ آذار.

مززتُ مزّات خفيفة من قدح القهوة واسترسلت في كلامي:

– إنه عين الدلالة الصوفية إذ توتَّدَ قلبها عشقاً فسمت روحها في مدارج السالكين.

قاطعني جعفر قائلًا:

– لن أنسى ملامح وجهك يوم أخبرونا أن الحمار دحرها بقوة عندما كانت تغرف بدلوٍ في البئر، فغرقت روحها.

فتَرت للسكون ملجأ ومنجاً من سلطة الأسى.

– لِننسَ الماضِ وإن كان لا يمضي ولنعش رتابة الحاضر، هنالك مفاجأة في الموقع الأثري تنتظرك في الغد، قد وجدنا في جوف لحدٍ مخطوطة ستقلب العالم رأساً على عقب وسيُكتب اسمنا على جبين التاريخ وعلى مؤخرتها إن كان امرأة، فالتاريخ إن لم يؤنث لا يعوّل عليه. قال بضحكة جعلت كل الجالسين في المقهى ينتفضون ذعرًا من مطرحهم وأعينهم الفضولية تتفرَّسنا، وقال بعدها:

– سأتركك ترتاح وفي الغد سنضحى في الموقع، سأمر بسيارتي ال"رونج روفر" لنأُم إلى الموقع. تحياتي أيها الرفيق.

تعانقنا كما لم نتعانف من قبلُ، ربما وجدت روحينا قالباً يحويها، فما بين مُنكسِر من الوجود الذي يشبه العدم وبين مُنكسِر من العدم الذي يشبه الوجود تستكين روحينا.

في طريقنا بعد ذلك اليوم إلى الموقع وقَّعتُ على عقد ترأسي للطاقم البحثي والالتزام بأخلاقيات الميدان كترتيبات اجرائية.

– قبل أن نصل ونباشر في العمل ياماثيو عليّ أن أضعك في السياق، لن أُسبل عليك كثيراً، بعد مغادرتك أطلال أرواحنا بعد وفاة مريم وتخليك عن البحث الذي اشتغلنا عليه مدة عامين ونيف، ورحلت جايا بدورها بعد٧ أشهر من مغادرتك، أُغلِق ملف البحث، وبعد أن شاهدتُ في أعين طلابي ذلك الوهج الذي ما فتئ يذكرني بمحياك أنت وجايا بعد أزيد من ٦ سنوات عجاف على تشتتنا، شَكلتُ فريقاً من طلبة باحثين في سلك الدكتوراه، قد قمنا بواسطة الموجات الزلزالية بالمسح السيزمي بطريقتي الانعكاس والانكسار. وخلاصة القول، وجدنا بعض اللقى والكِسر الخزفية والفلِق في مقبرة تعود إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد كقيمة تقريبية كما أوضحه ذلك دراستنا للكربون المشع ١٤ ولم نستعمل طريقة التأريخ بحلقات الأشجار، والمفاجأة الكبرى أننا وجدنا بمحاداث رفات عظام تبين لنا أنها تعرّضت لتشوهات كثيرة رغم أنها دفنت في نفس البقيع ونفس مستوى الطبقة الأرضية هناك حوالي القرن ٧ الميلادي.

– تباً، ما هذا التخبط بحق السماء! قلت مستنكراً.

– على لسان البحوث العلمية أنقل لك. هذه المخطوطة هي "العزيف" لعبد الله الخظرد اليمني، ولا نستبعد أن يكون الرفات له استناداً لكتابات بعض المؤرخين أنه تعارك مع شيطان وقتله واختفى إذ ذاك.

– لا تقل لي "كتاب الموتى" الأسطوري، المفقود عن السحر وكيانات الأرواح. ثم استرسلت قائلًا:

– لكن تمهَّل وكيف لم يتلف المخطوط وهو في بواطن أخدود الأحقاف؟

– لقد أرسلنا البارحة للمختبر عينات لتوافينا بتقارير فيما بعد، وهو في ٩٠٠صفحة. وصلنا بعد لأي إلى خيمة الحواسيب والمعدات، وتعرفت على الطلبة الذين يحملهم الهم الابستيمي ولم تكسر بعد شوكت ضمأهم، وبعد ٥ ساعات من العمل والتنقيب أرسلتُ التقارير عندما فلترها (وسنفرها) جعفر إلى قسم الآثار في الرئاسة.

في المساء أقفلنا كعادتنا قبل هذا، لكن بدون سيارة ال"رونج روفر" ولا الشيب الذي اشتعل ولم يترك رأسي إلا وهو أصلع وبنظارتي ولحيةٍ بيضاء مع كثير من القلق، وسمنة جعفر وتجاعيد تفننت في رسم الشيخوخة في أديم وجهه.

– لما لم ترسل إلى جايا رسالة لربما تريد وصالك ولا تترك ما تريد لما تريد؟ قلت له في طريق عودتنا.

– يا ماثيو، سامحني بحق صداقتنا، لقد تخاصمت مع جايا عندما أبت أن نمارس الجنس، أمسكتها بقوة وبدأت ألثم ثغرها وأرفس نهدها فدفعتني، ولاشعورياً صفعتها حتى سال الدم من أنفها، وقالت لي أنها حامل منك. قال بصوت خافت يصارع الكبت كأنه يكفر عن خطايا السنين.

– أنت أحقر كائن قد كُوِن على وجه البسيطة. قلت بنرفزة واسترسلت:

– لماذا لم تقل لي شيئاً إلى الآن؟

– أرجوك أفهمني، قلت في نفسي ربما ستقولها لك عندما هاجرت وخشيتُ أن تنهار صداقتنا إن أخبرتك قبل هذا، لكن البارحة قد اهتصرني الحال ولم أنَم أبداً.

فتحت باب شقتي؛ أخدت حماماً ساخناً. أخدت قدح القهوة وأشعلت سيجارتي.

وضعت كتاب "الفصول والغايات" للمعري فوق الطاولة وشردت برهة:

– كم سيبلغ من العمر الآن ربما ٦سنوات أويزيد؟ هل هو ذكر أم أنثى؟ كيف ستكون جايا الآن؟ لما لم تخبرني؟ أين سأجدك يا جايا؟ بوابل من الأسئلة التي تقف في صف باسق قُصفتُ.

في دجنة الليل اتصل بي جعفر لربما أراد الاعتذار او شيئاً من هذا القبيل:

–ألو ماثيو، الأمر طارئ؟

قلت له بشيئ من الحنق:

– نعم أسمعك!

– كاميرات المراقبة تلقَّفَت شخصاً يعتمر قبعة ومعطفاً وفي وجهه ندوب، سرق المخطوطة من قسم الآثار!

سرت رعشة مكهربة في جسدي إذ ذاك واسترسل قائلًا:

– ولقد وصلني تقرير المختبر؛ أن المخطوطة جُلدت بجلد الميت وتحوي على سموم، كل من ويضع يده عليها دون واقٍ يموت في الحال.

–إذن؟

– إذن، السارق سيموت ومعه "العزيف".

–إذن لن نعتر عليها ثانية!

– للأسف!

انقطع الاتصال وأذعنتُ للسكون وللدجى عندما انطفأ ضوء الهاتف...

– يا سيد ماثيو، أفق، لم تكمل لي القصة! ما الذي حدث بعدها لجايا وجعفر والسارق؟ قبل أن أضعك في مرقدك بدار العجزة. قال لي شاب من معهد الصحافة والإتصال الذي يكتب سيرتي:

– على رسلك يا ولدي، كن صبوراً في الغد أكمل لك البقية. قرَّبَ ذلك الشاب الكرسي من السرير وحملني بلطف إلى مرقدي وأغلقتُ جفني مذَّاك...

– يا ماثيو، أيها الكسول قم فالفطور جاهز؟ قالت أمي بصوتها الذي يدك الجبال دكاً:

– نعم يا أمي أنا قادم... قلت.

بعدها؛ أغلقت رواية "أسطورة الرمال" التي نمتُ عليها ليلة البارحة.

– الحمد للسماء فقط؛ كان حلماً!

غُربة .. سوار بوعبانة .. تونس

التقيا كعادتهما في ملجئهما "كافي رُوج"، المقهى الواقع بقلب مدينة "باريس" الذي طالما احتضنهما ضامّا ذراعيه بكلّ حنوّ معانقًا كلّ ما أوتيا من أفكارٍ، سواء زاهية كانت تزخر لمساتٍ طفوليّة محبّبة أو صارخة تضجّ لطخاتٍ قبيحة طامسة. وشاء القدرُ أن تلتحف شمسُ نهارهما هذا بأسدلٍ سوداء باليّة الثورة تشنُّ التّمرُّدَ والعصيان.

كان محمّدُ ممتقعَ الوجه مضطرب الملامح، تستشيط عيناه نقمة وتزبد شفتاهُ بأرذل اللعنات:

"– سئمت هذا البلد، سئمتُ أزقّته، شوارعه ومنعرجاته التّي ما أنفكّ أتقلّبُ فيها. كل الأماكن أمست بنفس الرّائحة؛ لا محلَّ يزخرُ شذىً مميّزا يعطي رئتيَّ بين العثرة والأخرى نفساً جديدا يدفعني لأواصل السّير وأتشبث بأواصر الحياة. سئمتُ ذاتَ الجدران التي ما برحتُ أرتطم بها، ذاتَ الوجوه التي اخترقتني وأحرقت قلبي نفاقا وخيبات. متى أكسر قيود غربتي التي أنهكت أصداء قلبي سدىً، متى أجرّد جناحي من لحافٍ ليلكِ وأتحرّر من غياهب سجنٍ يفيض عبثا؟

سجنٌ لطالما حُبستُ وراء قضبانه الحديديّة. على وقع خُطَى تَضَارب كياني تباغتني زحمة أفكار ولا أُمسي أفكّر في شيء، فجائعٌ ذائعة الصيت عاتيّة كأنواءِ موجِ بحرٍ هازجٍ تهوم في همهمات ليل أَغبرٍ أشعثٍ يسكن ضلوعي، ضجرتُ وضجر قلَمي منّي وصرخ الورقُ في وجهي تذمّرا من فوضايَ اللامتناهيّة، ضاقت بي السّبل باحثاً عن جانبٍ مشرقٍ لخسوف ألقى ظلاله داخل روحي السّقيمة واستساغ طعم الهزيمة فيها فأطال المقامَ هناك. ليت الأرضَ تنشقّ شطرين وتبتلعني فما تُبقي منّي إلّا ذكرى عابرة تحاكي نفساً قاست أهوالا وعواصفَ هوجاء لا يحتملها عاتق بشرٍ ولا يكفيها حروف ولا كلمات لترويها ".

راحت " قُدسُ" تتفرّسُ وجهه مرارًا تحاول عبثا مواساته فلا تُسعفها العبارات ويختنق صوتها بغصّةٍ تنبع من قلبها، تشابكت الدّهاليز من حولها، شعرتْ بالأسى على محمّد، رفيق دربها منذ نعومة أظافرها، شابٌّ لم يبلغ بعد الثالثة والعشرين ربيعًا لكنّه نهل من مضارب الآلام ينابيعًا ثجّاجة صقلت صفحات نفسه تجاعيد زمن فتيّ.

_ سيأتي يومٌ ننشدُ فيه تهليلات لحلول ربيعٍ منتظرٍ، ربيعٌ تسطع فيه عروسُ النّهار لتبسط دفئها على أفئدتنا التي ضاقت ذرعًا ببردٍ لطالما لفح جوهرها وتتفتّح الزّهور وتزهو في كبرياء عظيم فتغدقُ الفضاء أريجًا ينعشنا ويضرمُ سبيلنا الباليَ سراجا يثجُّ هدًى".

اِنغمس محمّدُ في عالم وردي يفيض بشرًا يحاكي وقع نغمات الربيع المنشود واستفاق من إطراقته الطويلة لئلاّ يموت صمتًا ثمَّ غرسَ عينيه في وجه "قدس" مستطردا منه آفاق التفاؤل فارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه؛ أرسلت السّكينة إلى روحه واطمئن لها فؤاد "قُدس".

عاد كلٌّ منهما أدراجه متشبّثَين ببصيص أمل في غد أفضل.

انكبّت قدسُ على مكتبها تلتهم الكتب التهامًا تراجع لامتحاناتها الأخيرة تائقة وطء قدميها على أرض وطنها واستنشاق ترابه لتعبَّ رئتيها منه عبًّا، فراعى انتباهها صوتٌ شاجنٌ يخترق الظلمة البلهاء من وراء النّافذة، أزاحت السّتائر لتتفطّن إلى يمامةٍ هالكةٍ، خائرة القوى، يمامة واهنة أثخنتها الجراحُ وسلبتها العثراتُ لونَها الأبيض الثّلجي، في عينيها علائم ضعفٍ تصرّحُ بماضٍ يفيض ضروبًا من الجراح والخيبات.

تحاول عبثا مجاراة صديقاتها في الغناء فتنسج من زقزقاتها الممزّقة ألحانًا قاتمة تَفطر القلوب وتسلبُ الفؤاد فتستكين لشحوبها وتتلحّفُ الرّماد ثم تطبق جناحيها عليها علّها تخفي الثورة التي تعتري ذاتها، علَ الآخرين يخفقون في استبطان سريرتها.

سارعت قُدسُ إلى فتح النّافذة وأخذتها بين ساعديها ثمّ أسندتها على رُكبتها فانتابتها قشعريرةٌ لمّا كشفت عن جناحٍ مكسورٍ تداعى له سائر الجسد. وفي لحظاتٍ معدوداتٍ؛ ضمّدت الجرحَ واتّخذت لليمامة وسادة وثيرة ثمّ راحت تداعب ريشها السّحابيَّ وما فتئت تغوص في جمال عينيها. بحرٌ صافٍ يفيض دفئا وحبًّا، بين ثناياهُ

عمقٌ أصيلٌ ثابتٌ يضيء بريقهما في خِضَمِ ليلٍ أهوجٍ في سحرٍ يخطف الألباب ويُسكرُ العقول؛ رأت فيه قدسُ بحر "الهوارية" الموجود بالشّمال الشرقي للوطن القبلي التونسي الذي طالما ضمَّها ورفاقها كلّما اتّخذوه سبيلًا. غرقت قُدسُ في أنواء بحرٍ من الذكريات؛ يتلاعب التّيار بكيانها الهشَ بين تصعيد وتصويب يزخران نقمة.

تذكّرت قدسُ حيّها الذي خلّفته في تونس. الحيُّ الذي كان لا يخلو من الطّيور إلا ليزخر بضروب أخرى، تراكمت الصّور الخوالي في خلايا دماغها وانهالت عليها شتّى فنون الحنين لتغدو قشّة تتلاعب بها الرّياح في عبَاب ديجورٍ أخرسٍ.

أسندت رأسها على وسادتها وبكت حتّى خانتها الدّموع وجفّت عيناها من أنهار العَبَرات، عصفت بها الذكريات من كلّ صوبٍ، خنقتها وقبعتْ أمامها تشاهد الحِمم التي استبدّت بكينونتها ، تمحقُ سيجارتها الكاويّة في ثنايا قلبها حتّى غيّبها السّباتُ فانساقت بها الأحلام كلّ مساقٍ.

لاحت تباشير الصّبح الأولى في الأفق فتربّعت الشمس عرشَ السّماء وأسدلتْ خُصْلاتها الذهبيّة على الكون معلنة بداية يومٍ يطوي أحناء ضلوعه على مهجةٍ تتحرّقُ بركة وحُنوّا.

ما بَرِحت قُدسُ تحدّث محمّدًا عن اليمامة التي حلّت ضيفا خفيف الرّوح البارحة، فابتسم وعبثًا حاول مشاكستها:

"– مهما كبِرتِ فلن تُمحى صورة تلك الفتاة الصّغيرة التي تنبسط أسارير وجهها انشراحًا بأبسط الأشيا. غرّدي يا صغيرتي أعذبَ الألحان فقلبي يرقص فرحًا لفرحك وينبضُ شوقاً لاختراق صوتك شراييَنهُ ويضرب على أنغامِكِ أشجى الإيقاعات، غنّي إلى أن ينضب فيضُ الكلمات، وحتّى لو فعل؛ فلن يهدأ لي بالٌ إلّا إذا سمعتُ صمتك فأنسج منه أحزمة سرّاجٍ أتشبث بها حتىّ تجفَّ الأقلام ويفنى العُمر".

يلفظ الكونُ أنفاسه المتسرِّبّة برذاذ مطرٍ يتجاوب مع وقع الأقدام في برك الوحل، تتساقط أوراق الخريف لتلتحفها الأرضُ مجاريّةً الأيام في انقضائها واختراقها لصفحات الماضي التّي زلّت.

حُصِّلَ ما في الصّدور وعُلّقت نتائج الاختبارات على اللوحات؛ راح محمّد وقُدسُ يزاحمان الحشود ويتفرّسان في الأوراق التي تجلّت أمامهما، للحظة، شبحا لطالما أرّق أجفانِهما وأقضَّ مضجعيهما وسوّدَ خواطرهما قلقًا.

زُلزلتْ قُدسُ القاعةَ صراخًا لمّا وقعت عيناها على اسميهما في صدارة قائمة المتفوّقين، أمّا محمّدُ فرقّت عيناه نصرًا. وأحسّ أنّ القدرَ، ولأوّل مرّة، يرحم قلبه الواهن المنكسر ويهديه وصلةً تنيرُ له السّبيل في عباب ليلٍ دامسٍ يهدي السّاريَ الضّال ويبَلَّ ضمأه وترتقي أحلامه المبعثرة تحت المخدّة المستكينة لعفسِ الأقدام _الفضاءَ الرّحبَ فيخلع على السّماء رونقًا خاصّا كنجمٍ مضيءٍ لتكتمل لوحة ذيِّلت باسم فنّان يَنطِقُ رسمُهُ بآفاق جمالٍ أخّاذٍ لا يضاهيه ابداعٌ.

راح كلٌّ منهما يخترقان الوقتَ وينهبان المسافاتِ نهبًا لتحضير أمتعتهما وبَسْط جناحيهما فوق سحاب "برج ايفل" خارج هذا البلد الزّاخرِ غربَة، ليست غربة عن المكان والوجوه فقط، بل غربة عن صفاء مرآة ذاتهِما الصّادقة، غربة عن نقاء روحهما الحالمة.

انتظر محمّدُ دقائقَ أمام غرفة قدسُ حاملًا حقائب في يده ممسكًا جوازَ سفرٍ في يدٍ أخرى، فكان كمن يتشبث ببراعم الحياة في آخر سكرات موته متلهّفًا لسقي بذرتها وايذاع طِيبها شرقًا وغربًا.

ولمّا فرغت قدسُ من شأنها، حملت اليمامة برفق في كّفها الأيمنِ بنيّةِ اهدائها لجارتها، تلك الفرنسية "أبيغال" التّي استعاذتها بفيض كرمها أن يترشّف هذا الطّيرُ المسالمُ من كأس الشّقاء.

همّت بالخروج واغلاق الباب بقوّة عاصفة هوجاء تزخَرُ بغضاءً. ففاجأتها اليمامةُ بزقزقةٍ عذبةٍ تدرُّ جناتٍ من الياسَمين تغزل بها سمفونيّةً تنبضُ حياةً، انتفضت بجناحيها عن يديها محلّقة حولها ومحّمدٍ في التفافاتِ تَغدِقُ شكرًا وألف عباراتٍ من الحبِّ ثمَ لاحت في أفقٍ يثجُّ عسجدًا سلسًا تنسجُ من آلامٍ غابرةٍ خيوطَ تفاؤلٍ وزهوٍّ بصدى البقاء، فكانت كمن دُفنَ حيًا فتاق إلى الاغتسال بخُصلات الشّمسِ الذّهبية والتحاف الفضاء السّامي ولمّا أمدّته الأيامُ ببصيص نورٍ من كوّةِ بابٍ صدئِ فتحه مكابرًا

مستعصمًا على كلّ ما حولَه، واخترق الجدران التي ضعضعت بَسَالته ليبنيَ من الحجارة قلعةً تُشيدُ بمجده التّالدِ وعزّتهِ القعساءِ فيترنّح في بهرجٍ زيّن له صفحات قلبه ألوانًا. طارت عاليا تلامس قطن السحاب وتصنع منه ثوبا يقيها سخطَ الرّعودِ وزمجرة البروق، حلّقت في موكب عُرس يعّمُ زغاريدَ ويزخرُ شذى وردٍ رُسِيَ على أرضيّة مرصّعةٍ ياقوتًا فتدندن لحنا نُظّمَ على بحر حبِّ الحياة محتلّا قوقعة الشّموخ والصّمود شاديّة:

–بعضًا من رحيقِ الأمل، مدّوا أيديكم...

ولّما ارتطم صدى ذاك الصّوت بأذني محمّد استفاق من اطراقته ثمَّ زعزع صوت قدسٍ الشارعَ في ثورة مشيدة:

_ ألم أقل لك؟ سيأتي يوم ننفض فيه غبارا طالما سكن أجسادنا ونُضرمَ من الرّماد الذي تلحّفته أرواحنا نارًا تنطوي أملا وعزيمة.

وها هو اليومُ لنتربّع على ربوع الحياة الحقّةِ متقلّدين أكاليل الورود متزنّرين بطيبها الفوّاح. هاهو اليوم الذي تقوى فيه سواعدنا لنبسُط الشّراع من جديدٍ ونحيا على خشبة مسرَحٍ يهدي سبيلنا الضّال بقعة أضواءٍ وننساق في غمرِ موسيقى نعانقها والمدى."

سارَا إلى المطار معًا متشبّثين بأيدي بعضهما البعض إلى أن خلّفهُما الدّربُ، مخلّفين وراءهما تاريخًا حافلًا بجراحٍ عميقة لكن معقَّمة لتخلق في النّهاية سليقة لونِ الحياة، فكانا مثل جنديينِ عائدينِ إلى بلديهما؛ شبعا قهرًا حتّى تجرّعاه علقمًا، يخشيان أن

يُمسي الفراغ بين ضلوعهما يومًا بعد يومٍ أكثرَ فراغا، جنديين تاقا اِشفاء غلِيلهما من طول الغياب متلهّفين الرّكوع إلى تراب موطنهما، من وراء الأسوار الشّائكة، ليعبّا رئتيهما منه عبّا حتّى يعوّضا عن مرارة الحِرمان ولوعة الفقدان... فقدان الوطن.

المُذنِب .. ياسمين بعطوش ... الجزائر

"مبارك تسريحك؛ أنت منذ اليوم عضو فعال مجدَّدًا في المجتمع، أرجو تكون تجاربك السابقة دافعًا لك للمضي و الحصول على بداية جديدة."

كانت تلك الكلمات الأخيرة التي منحني إياها طبيبي منذ خمس سنوات في مصحة الأمراض العقلية، وبابتسامة صادقة بادلته إياها على وهن. صافحني بقبضة قوية، وبعد توديعه شددتُ بقبضتي على حقيبة أغراضي القليلة، و شَرعَتْ خطواتي تتتابع مبتعدة ببطء عن المكان الذي مكثتُ فيه معظم سنوات الذروة في حياتي.

شخص مثلي لم يكن لديه أي مكان للتوجه إليه في فترة كهذه؛ ما عدا منزل والديه، والذي كان خاليا من غيرهما؛ رغم أنه سابقًا احتضنني وشقيقي التوأم؛ الذي يصغرني ببضعة دقائق جاعلين منه مكانا حيويًا.

أو بالأحرى؛ أن تلك كانت وظيفة أخي كوني لطالما اختبأت في ظله. بالعودة لتلك الأيام أظن أن كل شيء بدأ منذ اللحظة التي أصبح بمقدورنا الإطِّلاع على العالم الخارجي!

قبلها وكوننا توأمين، ووحيدي والدينا؛ لم نكن نفترق مهما كان المكان الذي وضعنا به! بطبيعة الحال ومع مرور الوقت كبرنا وكبرت عقولنا وتكوَّنَتْ لكل منا شخصيّة مستقلّة عن الآخر. كان هو الشخص الحيوي المُندفع، والذي يصنع جوًا بهيجًا أينما حلّ، في حين كنتُ أنا ذلك الهادئ الذي اكتفى باللحاق بشقيقه والاختباء خلفه، والذي لم تكن لتلاحظه إلا بعد حين.

حتى سنواتنا الأولى كان كل شيء حميمي ووردي؛ أخوان متطابقان يلعبان مع بعض و يدافع أحدهما عن الآخر... لكن ذلك لم يُكتَب له الدوام! ففي بداية سنواتنا الإعدادية؛ أصبحتُ شخصًا لا يلائم شقيقي المُشرِق، والتفّ حوله غرباءً يشبهونه تاركين إياي على الهامش! و بقيتُ أتابعه من الخلف.

لكن ذلك لم يكن بالشيء الجلل، طالما أنه يمكنني مقابلته بالبيت، وتبادل بعض الحديث الودِّيّ معه. لكن حتى ذلك غدَىَ صعبًا، فحتى والداي مالا بشكل كبير نحوه، و تُرِكْتُ في الهامش مجددًا، في أكثر مكان من المفترض أنه ملاذ آمن لي! كانت تلك اللحظات التي بدأ فيها كل شيء، لكن ذلك لم يخلق إلا شعورًا خفيفًا بالمرارة؛ فلستُ شخصًا يمقت الوحدة والهدوء، وغالبًا ما قضيتُ مُعظم الوقت وحيدًا في غرفتي، كما أن كون والدي لا يفضلانني لا يعني أنهما يتجاهلانني كذلك. وقتها هذا ما دار بخلدي لذا لم أطل التفكير. لكنني لم أعرف أن ما اخْتَزَنْتُه دواخلي كان أكبر بكثير، و مع توالي السنوات كان يزداد دون إدراك مني.

أخي لم يكن يكرهني أو يشمئز مني، لكن وقتها كان جزءًا صغيرًا مني يظن ذلك، ولطالما عملتُ على طمسه بعيدًا. كل ما في الأمر أن شخصياتنا لم تتفق، لكنه دائمًا كان مستعدًا لتقديم المساعدة لي مهما كانت صعبة، ورغم هذا وبمضي الوقت، وتفوقه الدائم عليّ، نمَّى بداخلي شعور بالنفور منه.

أذكر يومها؛ كنّا طالبين في الصف الثاني من الثانوية في فصلين مختلفين، كان لديّ امتحان مهم، وبسبب مرض مفاجئ لم أستطع الذهاب، لذا تقبلتُ الرسوب بهدوء لعلمي المسبَّق بتشدُّد الأستاذ و رفضه الإعادة، حتى لو أعاده لي سيكون أصعب من سابقه. ذلك المساء دخل أخي غرفتي سعيدًا بعد عودته من المدرسة، كنت لا أزال مرهقًا، لكنني أتذكَّر بوضوح صوته البهيج يقول:

_ إحزر ماذا؟ لقد حضرتُ حصصك وقدمتُ الامتحان مكانك، ولم يكن بتلك الصعوبة؛ لذا أضمنُ لك علامة جيدة.

ثم شرع يتحدَّث عن أن لا أحد شك به لأنني شخص لا يبرز كثيرًا في الصف. وقتها غمرتني سعادة لم أستطع وصفها؛ شعرتُ أنني قفزتُ فجأة لصفحة الحياة الرئيسة بعيدًا عن الهامش، لكن ومع انقضاء فترة مرضي و عودة الحياة لطبيعتها؛ نسيتُ تلك الحادثة تمامًا، وعُدتُ لمكاني الأصلي:الهامش.

ثم كانت القشَّة الذي قسمت آخر معتقداتي. حدث أن كنت مارًا بالصدفة بجانب مجموعة أخي، يحدث هذا كثيرًا لكننا لا نُلقي حتى التحيّة على بعضنا! لكن يومها استرعَتْ محادثتهم انتباهي؛ لأنني كنت موضوعها!

راح أصدقاؤه يعدِّدون الفروقات بيننا، ويسخرون كيف أن لا شيء بيننا يتشابه ما عدا وجهينا! لم يكن ذلك ما أزعجني؛ بل أن شقيقي لم يفتح فمه بحرف مدافعًا عني!

بقي الموقف يدور داخل عقلي دون توقف، حتى أنه حرمني من النوم الهانئ. ثم و بعد ثلاثة أيام، وبينما أنا عائد من المدرسة؛ كان أخي يسبقني ببضعة أمتار؛ لم ينتبه لي، و أنا بدوري لم أناديه، لكنني اِسْتَمْرَرْتُ بمراقبته. كان يضع سماعات الأذن و يحدِّق بهاتفه كعادته، وبشكل متهوِّر عَبَرَ الطريق! كان الطريق عريضًا، وأنا من خلفه على الرصيف؛ وقفتُ أحدِّق به، والشاحنة المسرعة تقترب منه!

و قتها؛ لم يكن يبعدني بالكثير؛ بإمكاني إنقاذه لو ركضتُ بسرعة، فقد كنت أقرب إليه من الشاحنة، لكنني لم أتحرَّك! في تلك اللحظة مرَّ شريط حياتنا أمام ناظري و كأنني من سيلقى حتفه لا هو، ما جعل ساقيّ تلتصق بالأرضية تحتي، و أمام ناظري ضربته الشاحنة!

لم أعد إلى رشدي إلا بعد أن رأيته على الأرض مضرجٍ بالدماء؛ لكن الأوان كان قد فات، و أخي مات. لحظة قدِّرتْ بثانيتين؛ قبلها لم أفكر بغير الأوهام التي نسجها

عقلي عنه؛ أما بعدها لم يعد يخطر على ذهني غير ابتساماته النقيّة، ومواقفه الجميلة نحوي.

تلك اللحظة التي تبدأ نفسك بالغرق في ظلمات الحزن و الحسرة، يتحامل عليك كيانك كاملًا و يشرع في تمرير شريط خيباتك أمامك، لتتحوَّل إلى اكتئاب مزمن. نَزَلَ الخبر كالصاعقة على والديّ وكذلك على كل معارفه، واستمرّ الحزن عليه فترة طويلة. ما عداي أنا الذي حبستُ نفسي في غرفته رافضًا أي اتصال بالعالم الخارجي، و كثيرًا ما وجدني والدي فاقدًا الوعي لنقص التغذية. صرَّح الطبيب أنني أمرّ بصدمة بما أنني شهدتُ على موته، لذا شرعتُ في أخذ جلسات العلاج النفسي، لكن ذلك لم يحدث أي تقدُّم؛ ذلك لأن ما يحاولون علاجي منه غير الذي أصابني. لست على هذه الحال لأنني شهدتُ أخي يموت، بل لأنني قتلته!

بعد فترة زادت حالتي سوءًا، كوني لم أبح بالحقيقة لأحد وشعور الذنب الذي نهشني؛ صرت أسمع صوته بجانبي يلومني، وأرى وجهه يناديني في كل مرَّة وقع نظري على ما يعكس وجهي، ليكون تطابقنا ما قضى على آخر ذرة تماسك لديّ، مؤديًا لانهياري و دخولي المصحَّة العقليّة.

خلال السنوات التي قضيتها هناك وببطء شرعتُ بقول ما يختلجني، وكان ذلك ما أدى إلى شعوري ببعض السلام الداخلي، رغم أنه استغرق طويلًا. أصريتُ على الطبيب

ألَّا يبوح بأي من ذلك لوالدي، حتى أنني كدتُ أجثوا على ركبتيّ أمامه، لذا ما كان أمامه إلا أن يُذعن لطلبي، وأخبَرهما: إن العلاج يجدي أخيرًا.

لم أستطع تخيل النظرات المشمئزة التي سيرمقانني بها، وفضَّلتُ التعايش مع سري للأبد. كما أنني الابن الوحيد لهما الآن لذا كل ما عليّ فعله هو التحسُّن والعودة للعناية بهما حتى آخر لحظاتهما؛ للتكفير عن ذنبي، وكان إدراكي لهذه النقطة هو ما ساعدني على التقدم بالعلاج حتى شفيتُ تمامًا... حقيقة ليس تمامًا، فأنا لا أزال أراه في كل انعكاس لوجهي، لكنني تقبلتُ هذا على أنه عقابي الأبدي وعليّ التعايش معه.

أخيرًا؛ ها أنذا أقف أمام باب منزلي، و بأصابع مُرتعِشة ضغطتُ الجرس، وتلاه صوت والدتي مطالبة بالانتظار، وتسارعَتْ عينايّ بذرف دموعها بمجرد لمحها لهيئة أمي القصيرة مقارنة بي؛ كان باديًا على ملامحها الإرهاق والذي على الأرجح أنه بسببي! إلا أنها أخذتني في عِناق أدفأ من أشعة الشمس في منتصف الصيف، والذي بادلتها إياه باشتياق عارم، لينضمّ لنا لاحقًا والدي، بعد أن أطالت أمي التأخر عند عتبة الباب.

أجل... كل ما عليّ فعله هو التماسك من أجلهما، فلم يبقَ لأحدنا غير بعضنا.

مُداهمة .. حسن كشاف .. المغرب

جهّزَتْ أمي العشاء ودعتنا إلى المائدة. شرعنا في الأكل قبل أن نتوقَّف والفزع يغمرنا، صوت طرق شديد على البابِ، لم يكن طرقًا عاديّا؛ زوَّارنا قلائل، وبالليل ينعدمون. يتوالى الطَرْق، وكأن الطارق يستخدم جذع شجرة، من تلك التي توظف لتحطيم بوابات الحصون في العصور الغابرة.

أبي ينظر إلى أمي، وقبل أن ينهض من مكانه ليتفقَّدَ الأمر، إذ بنا نسمع وقع أقدام على السطح. أخي الرضيع يصرخ، وأمي تحاول تهدئته دون جدوى، أختي زينب هي الأخرى متوجسة للغاية وتحاول أن تدس رأسها تحت ذراع أمي كما يفعل العصفور الصغير، وفي غضون ثوان صرنا محاصرين بجيش من الرجال مفتولي العضلات، بلباسهم القاتم، مدججين بأسلحة مختلفة لم أر مثلها إلا في أفلام الحركة. لم أستطع تمييز وجه أي منهم، كانوا يضعون أقنعة تظهر منها أعينهم الجاحظة فقط!

التهمنا الذهول، وارتعدت فرائصنا ذعرًا، لم ينبس أحد منهم ببنت شفة! أبي يحاول الوقوف، ينبري له أحدهم من الخلف مربّتًا على كتفه، وكأنه ينصحه بعدم التحرك من مكانه. يشير أحدهم لآخر كان يقف عند الباب غرفة الجلوس، فهمتُ من الإشارة أنه

يدعوه لفتح الباب. تلتحق بنا مجموعة أخرى، غير أنها كانت تكتسي بالأبيض، وتحمل معدات متنوعة، وحقائب بيضاء، مسترشدة بتعليمات الرجل الوحيد غير الملثم:

ـ فتشوا البيت كاملًا، وركزوا على غرفة الصبيّة؟

كانت هذه أول جملة نسمعها منذ دقائق، لم نركِّز على أفعالهم، ولا على أصوات التكسير التي تأتي من الداخل، بل تحوَّل تحديقنا إلى أختي "زينب"، هي الأخرى بدت حائرة مرتعبة، ترمقنا بنظرات استغراب، وعيناها الصغيرتين تستعطفنا لكي نُصدِّقها:

ـ أقسم أني لم أفعل شيئا! صدقوني أرجوكم!

كانت قلوبنا تنبض بشدة، أمي ما زالت تحتضن أخي الصغير، وعيناها متسمرتان على غرفة أختي التي تنبعث منها جلبة كبيرة.

خرج المفتشون من الغرفة، نظر إليهم وهو يومئ برأسه متسائلًا، حرَّكوا رؤوسهم بالنفي، بدا عليه الغضب، وحوَّل نظره إليها. كنت ما أزال أحمل قطعة الخبز في يدي، رأيت في عينيه حقدًا وكراهية. وضعتُ قطعة الخبز على الطاولة، وخنزرتُ فيه طويلًا.

كان أبي يردد عبارة:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله!

تجاهلني ووجه أصبعه نحو أختي زينب: خذوها!

صرخت أمي وولولت وهي تتمسك بثياب زينب، التي انفجرت باكية محاولة الارتماء في حضن أمي:

ـ أمي.. أمي.. لا تسمحين لهم بأخذي!

ـ متخافيش أبنتي أنا معاك.

ـ "الظلم ظلمات يوم القيامة." قال أبي مستسلمًا.

انتزعوا أختي بقوة الرفس من بين ذراعي أمي، حملها أحدهم كما تحمل الخراف.

كانت زينب حقيقة نحيلة، لم تكن غير صبية في سن الخامسة عشر، لا تعرف سوى المدرسة والكُتَّاب، وأمي تنوح غير قادرة على فعل أي شيء. أخي الصغير يتفاعل معها ويغرق في بكاء هستيري. أنا الآخر لم أتحكَّم في دموعي. تمنيتُ لو أن لي قوة خارقة، فأهشِّم رؤوس هؤلاء الوحوش، وأكسِّر هذه العضلات التي يفتخرون بها.

أقصدُ النافذة، يا إلهي سيارات سوداء فخمة تملأ الحي! ومن المدخل الآخر للحي مجموعة أخرى من الملثمين يحملون صِبْيَةً متفاوتي الأعمار، لم أميز وجوههم، العتمة شديدة لكنهم كانوا في عمر أختي أو يزيدون بقليل، ثم كُدِّسوا في السيارات. الأستاذة "أم يوسف" مدرِّسة القرآن بالكّتاب تُجَر نحو سيارة كبيرة وهي تصرخ:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل... كِلاب... كِلاب...

تتلقى ضربة على الرأس يخفت صوتها ثم ينقطع. أعود بنظري إلى داخل البيت؛ كان الجميع قد نزل إلى الأسفل، نزلتُ حافيًا. كانت السيارات قد غادرت، جيراننا

يتساءلون عن الواقعة، أبي يطلب من أحد الجيران أن يقِلّه على وجه السرعة إلى ولاية الأمن. بقينا متسمرين رفقة عائلات المعتقلين إلى حدود الفجر؛ نتجرَّع أنواعًا من "السناريوهات".

عاد والدي في قبيل الفجر؛ كنّا ما نزال جامدين كالحجارة لم يغمض لنا جفن. أخبرنا أنه لم ير زينب، ولا يعرف أين أخذوها... وأمسك رأسه وهو يردِّد:

ـ التهمة خطيرة... التهمة خطيرة... اللهم لا نسألك رد القضاء إنما نسألك اللطف فيه.

أمي تتصدّى له وهي تشتاط غضبًا:

ـ أش من تهمة!؟

ـ تهديد أمن البلاد!

ـ أشنوا..!؟ الله على بنيتي الله!؟ حنا غير دراويش الله ينصر سيدنا.

تذكرتُ على الفور تلك العبارة التي كانت تلوكها الأستاذة أم يوسف على الدوام:

"المَلِكُ هو الله عزّ وجلّ لا أحد غيره".

قصتي القصيرة .. نصير العراقي .. العراق

نسمات هواء تتلاعب بالباب الخشبي الذي لا يغلق فيُجبر على الصراخ بصوته المعتاد، ثم تتسلَّل النسمات بهدوء مارة على الشمعة الدامعة لتربت على خصلة شعلتها المترنِّحة النائحة، بعدها تنطلق نسمات الهواء تلك بعدما حملت حزنًا خارجة من النافذة ذات الزجاج المحطَّم.

جسد نحيل يستقر على كرسي خشبي مُنهك؛ جُبرَتْ رجله الثالثة بخشبة أُقتلعَتْ من وجه الطاولة المستديرة الصغيرة؛ التي يستقر عليها قدح معدني فيه القليل من الحساء الذي لا زال يحتفظ بشيء من الرائحة الطيبة وقليل من الدفء.

وجه شاحب وعينان ذابلتان تترنَّحان ببصرهما بين الجدران المهترئة؛ التي احتلت إحدى زواياها بيت عنكبوت مهجور بعد رحيل أرملته التي ضجرت من طول بقائها عذراء.

الشفتان تعتصران بعضهما بعضا وكأنهما تريدان منع شيء من الخروج. تسلَّل الكفان المتسخان المحمَّلان، واحتضنا القدح فتسرب ما بقي من دفئه إليهما. اشارة سريعة إلى المخ، وأمر أسرع، ثم رفع القدح والوجهة الشفتان. قُبلة باهتة لشفة القدح،

فارتشاف بهدوء حتى آخر قطرة من الحساء.

لم يعد القدح باحترام إلى مكانه الذي إعتاد الوقوف فيه شامخًا على الطاولة الآيلة للانهيار، بل أُلقي به بعنف ليستقر في مكانه المعتاد حيث الزاوية تحت البيت المهجور؛ منتظرًا يومًا آخر يشمخ فيه من جديد!

عاد الرأس المثقل بالهموم للانحناء، ثم ارتفع الكف الأيمن وبدأت أصابعه تتفقد تلك التجاعيد الكثيرة في الوجه... تجاعيد غائرة عميقة بعمق الشروخ والصدوع التي مُنيَتْ بها الروح طيلة سنوات العمر الخمسين.

هوى الكف بسرعة والوجهة الطاولة التي ارتجفت، وقبل الارتطام كُبِحَ جماح الكف وهبط بسلام و وداعة على وجه الطاولة، وأخذ يربت عليها.

ضحكة عالية أُطلقت، مع انفتاح مبالغ فيه للفم كاشفًا عن عبث السنين القاسِ الذي ترك بصمته بقوة على الأسنان وسواها، فلم يترك منهن إلا قطع سوداء متناثرة في فناء تلك البوابة الخربة.

العينان تتخبطان مجددا بين الجدر، انتصب الجسد المتهالك الذي تكسوه ثياب رثة تكشف عن عمل مرتديها.

أطلق العنان للكلمات أخيرًا لتجول في المكان وتخترق الشقوق في الجدران.

– شكرًا، شكرًا لكِ يا أحلامي العريضة... شكرًا أنتِ من أبقيتني على علاقة وثيقة مع الأنفاس، فلولا صمودكِ معي لما كنتُ أنا الآن هناك أُبحر بقاربي حول الجزيرة أواجه

أمواج البشاعة، والإجحاف رغم أن قاربي بلا أشرعة ولا مِجداف... بلى يا أحلام أنا ممتن لكِ، وسأبقى كذلك حتى أخر الأنفاس.

ضحكة أُطلقَتْ كأنها روح خرجت من أعماق الجحيم هاربة من جلاديها. عاد الجسد ليهوي برفق على الكرسي الذي صرخ طالبًا الخلاص. بدأت العينان بسكب الدموع، وأخذت الشفة ترتجف، وحشرج الصوت، وتعالى الأنين.

الكفان ينقضان إلى الرأس المزدحم بالأفكار، والهموم.

تخلَّلت الأصابع بين طيات الشعر الذي لم يلامس الماء منذ شهور.

ثم فاضت العين بمزيد من الدموع، وانطلقت الكلمات.

– تبا لكم جميعًا... تبا لعالمكم المقيت... تبا لك أيتها الحياة.. تبا لكل السنوات التي قضيتها، وأنا أشد على جراحي وأصبر نفسي بغد جديد فيه بصيص أمل.

اليد اليسرى تندسّ في أعماق جيبه الوحيد وهي ترتجف، ثم تعاود الخروج بعد أن ألقت القبض على من تريد.

ورقة؛ بدى عليها الانهاك والتعب.

استلقَتْ الورقة على طاولة الذكريات، وفردت أطرافها لتبدأ العينان بالتأمل فيها. سطور وسطور كثيرة، وكلمات على السطور مبعثرة غير منتظمة، ولا مفهومة.

العين تتبع الكلمات بدقة والشفتان تتفاعلان بين ابتسامة تارة، ومعتصرة بعضها تارة أخرى.

أخيرًا توقَّف البصر، وركَّز عند آخر كلمتين...

"الكاتب فلان ".

ازداد جريان الدموع، وأُطلقَتْ ضحكة مدويّة؛ هزَّت خيوط البيت المهجور في الزاوية البعيدة. عاد الجسد للانتصاب، ثم انقضَّتْ اليد على الورقة لتعيدها إلى زنزانتها الأمينة. الأقدام بدأت بالحركة، والوجهة الباب الذي يصرخ مرارًا، ويئِن تكرارًا!

كلمات أخرى تخرج أشبه بالهمهمة:

– هيا بنا يا أنا نحمل كيس اوجاعنا؛ عائدين إلى الطرقات والازقة نتسوَّل الناس إحسانًا، هيا واصطحب معك رائحتك النتنة، وأحلامك المتفسِّخة المتعفِّنة؟

ثم توالت الضحكات...

الرغبة المجسَّدة في الانتقام .. أشرف الزبيري .. المغرب

نَزَلَ ياسر في فندق السلام. قال مخاطبًا السيدة المكلَّفة بالاستقبال:

ـ سيدتي أريد حجز غرفة؟

أجابته السيدة بابتسامة خفيفة:

ـ مرحبًا سيدي؛ انتظرني دقيقة حتى أراجع سجلات الغُرَف؟

ـ رد عليها بابتسامة مماثلة:

ـ لكِ كل الوقت سيدتي.

أخذت تقلِّب في ملف السجلات وهي تتمتم في نفسها: محجوزة... محجوزة! إلى أن وقع نظرها على غرفة شاغرة، قالت بصوت مرتفع بعض الشيء:

ـ يبدو أنك محظوظ سيدي؛ مازالت لدينا غرفة شاغرة: الغرفة رقم ١٢.

قال ياسر وهو يبتسم ابتسامة عميقة:

ـ شكرًا سيدتي.

أجابته:

ـ سيدي من فضلك ناولني بطاقة الهوية، ثم وقِّع هنا؟

ناولها البطاقة، ثم وقَّعَ في الإطار المخصص لذلك، بينما أخذت هي تكتب المعلومات في الجهة المقابلة للتوقيع. نظرت إليه نظرات شبيهة بمحقق وهي تتحقق من هويته، تغيّر لون بشرة ياسر، لاحظت ذلك، أنقذت الموقف وفجّرتْ ابتسامة عريضة وهي تقول:

ـ إليك البطاقة سيدي، وإليك مفتاح الغرفة، الغرفة توجد في الطابق الثاني ونتمنى لك إقامة مريحة، إن احتجت لشيء يكفي أن تتصل على هذا الرقم؛ نقدِّم كافة الخدمات؟

أخذ المفتاح وقال لها بخجل:

ـ شكرا لكِ سيدتي.

بينما يهم ياسر بالتوجه للغرفة، توجَّهت نحوه امرأة طاعنة في السن محدودبة الظهر، لها أنف طويل ووجه مليء بالتجاعيد، تتكئ على عكاز؛ حدَّجته بعينيها الحادة المخيفة، وهي تقول له محذِّرة:

ـ ابتعد من هنا؟ إياك والغرفة ١٢، الغرفة مليئة بالأرواح الشريرة لن يرحموك، سوف يقتلونك... ارحل من هنا؟

وقف ياسر متجمِّدًا في مكانه وهو ينظر إلى المرأة بعين متفحِّصة، بينما انتفضت السيدة المكلفة بالاستقبال تصرخ في وجه المرأة العجوز:

ـ أنت مُجدَّدًا أيتها العجوز الشمطاء، اِرحلي من هنا؟

ثم توجَّهت نحوها وهي تدفعها بكل قوة، إلا أن العجوز كانت تصرخ بقوة.

كان ياسر يشاهد المشهد بعين مشدوهة، وعلامات الاستغراب كانت بادية عليه، توجَّهت السيدة نحوه وهي تعتذر منه، قالت له بصوت مكسور بعض الشيء:

ـ نعتذر منك أيها السيد على هذا الإزعاج، اغفر لنا هذا التقصير، الناس غريبون هذه الأيام، الجنون استولى على عقولهم بالكامل.

أجابها والاستغراب مازال باديًا عليه، وعشرات الأسئلة تزاحم تفكيره؛ مصطنعًا نصف ابتسامة:

ـ لا عليكِ يا سيدتي مثل هذه الأمور تقع، لا مكان يسلم.

توجَّه ياسر نحو الغرفة صاعدًا في الدرج، وهو يفكِّر في كلام العجوز، ثم ما لبث يقول بينه وبين نفسه: دعك يا ياسر من هذه الخرافات، أنت رجل مثقَّف؛ لا تولي اهتماما للخزعبلات. وأخرج ابتسامة عميقة ممزوجة بسخرية وضحك في سره: حقًا الناس كلما كبروا ازدادوا جنونًا وخرفًا... هذه العجوز، مسكينة حقًا؛ استولى الجنون على عقلها بالكامل.

فتح ياسر باب الغرفة ثم وضع أغراضه على أريكة مزركشة، واستلقى على السرير. كانت الساعة آنذاك تشير للسادسة زوالًا، حدَّج بعينيه صورة معلَّقة في الجدار لامرأة فاتنة الجمال، معلَّقة في الحائط تلبس لباسًا أبيضًا، والابتسامة تعلو محيّاها؛ كأنها

شمس أشرقت في فصل الربيع. اقترب منها وبدأ يحدِّق فيها ويتأملها وهو يلامس خديها ويقول في ذهول:

ـ "واو "كم أنت جميلة! يا الله ما أروعها كأنها القمر!

ثم ما أن تذكَّر زوجته "فاطمة" إلا وقفز من مكانه وطرد الأخيلات من ذهنه ليعود لرشده. عند الساعة الثامنة مساءً؛ دقّ جرس الباب، كان المكلف بتوصيل الوجبات خلف الباب، بادره بابتسامة عريضة وهو يقول:

ـ سيدي إليك العشاء الذي طلبت، كل الذي طلبته مني جلبته لك.

نظر ياسر للرجل بعينين مشدوهتين وهو يتلعثم:

ـ لكنني لم آممم... لكنه استدرك الأمر وقال له بابتسامة تميل للسخرية:

ـ شكرا لك.

أغلق الباب وهو ينظر للأكل والمشروبات، أطلق بضع قهقهات خفيفة وهو يقول:

_ ما بال هؤلاء الناس هذا اليوم؟ غريب أمر هذا الفندق!

دخل ياسر إلى الحمَّام؛ غسل وجهه وهو ينظر لنفسه في المرآة، فجأة رمق كتابات كأنها مكتوبة بالدم مكتوبة في كل جداريات الحمام! أصابه شعور بالقلق والخوف؛ أحس بقشعريرة تسري في جسده، مرّر يده على الكتابات وهو يتفحَّصها، ويحاول أن يفك رموزها؛ ازدادت نبضات قلبه وهو يقرأ:

"مرحبا بك يا ياسر!"

أحس ياسر بخوف يتسلل لداخله، وتكاثرت حوله الشكوك، تذكَّر تحذيرات العجوز؛ ارتفع "الأدرينالين" في جسمه، فتح صنبور الماء وبدأ يغسل وجهه، ويضرب ضربات خفيفة على رأسه، كأنه يريد أن يستيقظ من حلم وهو يقول:

ـ رباه ما كل هذا؟ أمن المعقول أن يكون كل هذا الذي يجري في هذا الفندق مجرد مصادفة!؟

سرعان ما طمأن نفسه كأنه يريد أن يموِّه الأفكار التي تطارده، خرج من الحمَّام واتجه نحو السرير مباشرة، غلبه النعاس بشكل فجائي واستسلم لنوم عميق. لم يحس بالوقت إلا عندما دقّ منبه الساعة، نظر لشاشة الهاتف وهو يحاول أن يفتح عينيه جيدًا. كانت الساعة تشير للواحدة ليلًا؛ أوقف المنبه، لاحظ رسالة على الهاتف، أحس بالفزع وهو يقرأها:

."عزيزي ياسر لقد بدأ اللعب، مرحبًا بك في عالم الأرواح والدم."

قفز من مكانه فزعًا، نظر من حوله؛ وجد الأكل الذي تركه على المائدة قد تم أكله كله، مشى بضع خطوات لاحظ أن صورة الفتاة الجميلة التي كانت معلَّقة على الحائط تحوَّلت لعجوز قبيحة، أحس ببرودة تسري في جسده من رأسه لأخمص القدمين. ارتفعت دقات قلبه، انطفأت أنوار الغرفة، بدأ يصرخ في فزع:

ـ من هنا؟

أشعل ضوء الهاتف؛ كان يرى امرأة تلبس البياض وهي تقترب منه وتقول:

- عزيزي تعال إليّ أنا حبيبتك...اشتقتُ إليك؟

بدأ يصرخ بشكل هستيري:

_ ابتعدي عني، ماذا تريدين...؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... بسم الله الرحمن الرحيم؟

أشعل ضوء الغرفة؛ أمسك بزجاجة وهو يهددها بالضرب إن اقتربت منه ويداه ترتعشان من شدة الخوف، اقتربت منه أكثر وهي تقهقه بصوت عال وتقول:

- ياسر أيها الجميل؛ أنا حبيبتك لا تخف؟ اقترب مني؟ منذ مدة وأنا أنتظر مجيئك على أحر من الجمر!

اقتربت منه أكثر، حاولت أن تمرِّر يديها على خصيلات شعره. وجَّه نحوها زجاجة يحاول أن يبعدها عنه، اختفت في رمشة عين، بدأ يقلب نظره في الغرفة، أدار ظهره؛ فكانت واقفة ورائه، إلا أن وجهها كان بشعًا للغاية؛ تحوَّلت من فتاة جميلة لعجوز قبيحة تفوح منها رائحة كريهة، وهي تصرخ صرخات شبيه بتأوهات، أحس بخوف شديد وهو يرتعش كلية، قصد الباب يريد أن يفر إلا أنه وجده مقفولًا. كانت غاضبة جدا وهي تتوعده:

- أيها الحقير أنا الدم المهدور غدرًا، أنا الرغبة المجسَّدة في الانتقام... الموت للرجال.

كانت تقترب منه شيئًا فشيئًا، وهو يحاول أن يهرب من قبضتها، أحس بنفسه يرتفع في الهواء ثم يرتطم مع الجدار، سال الدم من رأسه، اقتربت منه وهي تمرِّر يديها العفنتين على شعره الأملس، وتهمس في أذنه:

ـ آه كم أشتهي الدم، لا تخف يا حبيبي، لا تخف؟ هكذا كان يقول لي حبيبي قبل أن يغرس في بطني روحًا في هذه الغرفة ويرميني فريسة للعار والذئاب؛ كان يوصيني ألّا أخاف، وأن أثق فيه، كان يقول لي بأنه ليس كباقي الرجال، كان وسيمًا وجميلًا، ويملك شَعْرًا أملسًا كشعرك ويحمل اسمًا كاسمك، لكنه لم يكن ملاكًا كما تصورته.

أرادت أن تُقَبِّله إلا أنه دفعها بعيدًا، وحاول أن يهرب، إلا أنها استشاطت غضبًا، وضربته ضربة قويّة بالجدار، ورفعتْ يديها عاليًا في محاولة منها لغرس ظفرانها الطويلة في أحشائه، بينما لم يعد يرى سوى الضباب.

بداية جنائزيّة .. لميس محمد وهبي .. سوريا

يشوب الحلم صفير الريح "الدراكولي" الذي تسلَّل بدهاء إلى لاوعيه، و صار يشوِّش مسار البطل في قهر "أمريكا"! بدا له هدير الريح هو صوت تضخُّم "المارينز" في لحظة النهاية؛ بالكاد يقترض أنفاسه من الهواء، يلهث، وبصعوبة يهزّه الوعي، و أخيراً يستيقظ.

تسلَّل ضوء الشمس المُغبر عبر النافذة؛ كان أجدر بالتقدير من تسلل صفير الريح ذاك الذي لم ينبئ عن بداية جيدة.

تقلَّب، تثاءب بملل مع تمطط ينم عن إعادة التشغيل وتهيئة النظام لاستقبال يوم جديد.

شيء ما يجعله يتململ على نفسه؛ رهبة! شيء يشبه القلق، على أية حال لن يكون شيء أسوأ من سماع نشرة الأخبار العربية.

لابد أن شريطاً عاجلًا بدأ واكتنف المنزل بإشعاعات البؤس. حتمية العاجل السيئ هي الأقوى إذا ما تعلق بالبلاد العربية.

قرّر أن يذعن للأمر و يكتشف البواعث لذلك القلق؛ سار بكدر إلى التلفاز: "الجامعة العربية تأكّد على أهمية القضية الفلسطينية و تدعم مكافحة الإرهاب"، "23قتيلاً في سوريا، والولايات المتحدة تخصّص هيئات إغاثة لمنع انقراض النسر الأمريكي."

ما من جديد يبعث القلق؛ لازال ذلك الكدر مبهم الأسباب مما جعل الموقف أكثر قلقاً، يبدو أن القلق ليس بالأمر الذي يجعله يستهين بقلق "بان كي مون" إنه شعور معقَّد بالفعل!

اعتَقَدَ أن الأمر مرتبط بعطل في النظام البنكي؛ مما قد يؤجل تقاضي المرتب الشهري المرتقب بأشواق عنترة لعبل في أواخر الليل؛ حيث الناس كلهم نيام إلا العاشق المشتاق! هي الأشواق ذاتها بالنسبة للمفلس في منتصف الشهر. تخيُّل تلك الوقيعة يربك الرئتين و يبلبل مسار الدورة الدموية في جسده.

يهرع هلعاً للاتصال بمحاسب الشركة؛ لابد من الاطمئنان على المرتب و إنهاء حالة القلق تلك. في ذات اللحظة التي تلقى فيها رسالة من البنك بحوالة مرتبه الشهري.

رغم أن كل شيء على ما يرام إلا أن ذلك القلق لا ينفك يغادره، قرَّر تجاهل الشعور وبخطوات بديهيّة اتجه ليحضر قهوته الصباحية، ويرتشف جرعة الحياة. فتح خزانة المطبخ؛ القلق يتضاعف، والتجاهل يتضاعف أيضاً، بيد أن تلك الخطوة البديهية كانت كفيلة بإسقاط كل علامات الاستفهام عن أسباب الكدر المبهمة و نبوءات قلبه

ببداية تعسة. ربما لو قرأت إحدى العرافات حظه لانهارت هلعاً عند حقيقة هذا الصباح!

يلهث؛ يحك جلده بشراسة. تناول رأسه بين كفيه و كأنه يكمش على بقايا عقله الفار من الحقيقة. بدأ يتعرَّق، برود في الأطراف، شيء من هبوط دقات القلب، تنتابه حاله هستيرية كئيبة. ذلك مشهد من الممكن أن يجعل برج بيزا يكمل مشواره باتجاه الأرض على أن يواصل بقاءه مائلًا، فليس ثمّة شيء أسوأ وقعاً على مدمنين البن سوى " قطرميز قهوة فارغ "!

ينتهي اليوم مع بدايته؛ و يعود بحالة جنائزية إلى النوم.

لعنة الحب .. نسمة سقوالي .. الجزائر

جالس على كرسيه المتحرِّك، يحاول الرجوع إِلى لحظة في حياته تمنعه من العودة إِلى الإدمان على المخدرات، لكن كل محاولة منه تبوء بالفشل الذريع، وانتهى به المطاف في المستشفى؛ يصارع الموت تلقاء تناوله جرعة زائدة من الكوكايين!

هو شاب في مقتبل العمر اسمه إِيهاب، لم يعان في حياته همّاً ولا تعبًا؛ عاش حياة الترف والدلال في عائلة مرموقة ذات صيت وكلمة، وفَّرَتْ له كل ما يلزمه من مختلف وسائل الترفيه والاستمتاع، لكن لطالما لم يجد فيها الحب الذي يحتويه؛ فأبوه يمضي معظم أوقاته في الشركة يسعى لكسب المزيد من المال، أمّا أمه فهي تهتم فقط بحفلاتها وصديقاتها.

في أحد الليالي المظلمة وبينما هو عائد من حفل صديقه؛ كان يقود سيارته بتهوِّر وبسرعة فائقة كما أنه لم يكن في كامل وعيه جراء تعاطيه المخدرات. فجأة فقد السيطرة على السيارة، لم يكن يعلم يومًا أن الثمن الذي سيدفعه جراء تهوّره وعدم مبالاته هو زهق روح وفقدانه القدرة على المشي.

وهكذا تمر الأيام يوم بعد يوم في حياته البائسة بعد الحادث، لكن لا يتغير شيء ولا يعرف بعد كيف يختار لطريقه معنى! صعب جدا عليه أن يكون بهذا العمر ولا يعرف ما يريد، صعب جدا ألا يعرف كيف فعل الأشياء وإتخاذ القرارات دون إستشارة أحد من أهله والأصعب من كل شيء؛ ألا يستطيع أن يتحرَّك عندما يريد ذلك.

ظلَّتْ أيامه تتكرَّر إلى أن لمحها أول مرة يوم ذاك في الحديقة. يومها أراد بشدة الوقوف على قدميه، ليكون مثل غيره من الشباب، ظل تائهًا في جمالها لربع ساعة إلى أن رحلت. وفي نفس الليلة لم يجد للنوم راحة وطريق. وجاء الصباح بنوره، فأخذه الفضول إلى المكان نفسه مرة أخرى، لم يجدها وظل يعيد تلك اللحظة طمعًا في عودتها، راودته الكثير من الأسئلة لكن بدون فائدة. أين هي؟ ألم تأتي اليوم أو أنها تأخرت وأنا أتيت باكرًا؟

لم يرها بعد ذلك اليوم، أنتظر كثيرًا كل يوم في نفس المكان؛ رغبة في أن يراها مُجَدَّدًا حتى أنه أصبح من محبي الحديقة! وهكذا مر شهر منذ أول لقاء. وذات يوم وهو هالك منالتعب جرَّاء تحريك عجلات الكرسي المتحرك؛ إذ بشخص يساعده! وهنا إختلف شيء أو كل الأشياء، أمتلك الشجاعة لثانية ليخبرها ما يقتله في ساعات الليل والنهار. إلتفت قائلًا:

-شكرا لمرورِكِ؟

فأجابت مسرعة:

– عفوا سيدي؛ لم أفعل شيئًا!

فرد قائلًا:

– ارجو أن تقومين بإيصالي إلى المدخل فقط، فسائقي هناك سيهتم بالباقي؟

فأومأت برأسها دليل على قبولها. وهكذا تشاركا الطريق القصير ولم يلبث ألا أن يتكلم فبدأ بالحديث معها:

_اسمي إيهاب وأنتِ؟

فقالت:

– نور أمل.

ثم صمتا إلى أن وصلا إلى المدخل، ودّعها قائلًا:

– شكرًا مرة أخرى وإلى لقاء آخر.

فابتسمت:

– هذا من دواعي سروري.

ثم ذهبت وإنتظر اختفاءها ليرحل. وهكذا ظل يغذّي وهم يومه بأن يراها للمرة الثالثة والرابعة وإلى ما لا نهاية من اللقاء.

صمت مخيف يخيم على قلبه! في أحد الأيام دَخَلَتْ أمه إلى غرفته فوجدته مغمى عليه؛ لتسرع به إلى أقرب مشفى ليكن نفس المشفى التي تتعالج فيها أم نور المريضة!

مكث هناك بضع أيام إلى أن تحسَّن حاله. وفي آخر يوم له؛ رآها في رواق المشفى، فتتبع أخبارها وتعرف على تفاصيلها البسيطة، عن طريق المعلومات التي حصل عليها من المستشفى عن أمها. وعاد إلى البيت في صدمة وهو ينكر حقيقة مشاعره نحوها. وها هو ذا يجلس في كرسيه وحيدًا يتساءل في نفسه: لا يمكن أن تكون هي؟ هي لن تسامحني على فعلتي ولن تكون يومًا جزءًا من حياتي! كيف سأقنعها أنني تغيَّرتْ ولم أعد ذاك الشخص منذ عامين.

ظل يبعث لها الورود إلى المشفى بحجة الصداقة وأحيانًا يزورها فقط ليراها، فإزداد الشك في قلبها، ولم تعد تقبل شيئًا منه حتى أنها أصبحت ترفض الكلام معه.

ذُعر إيهاب ولم يعد يستطيع أن يفكِّر، وراودته شكوك حول معرفتها للأمر، فذهب لمواجهتها...

– أعلم أنني تأخرت في االعترافي هذا لكن لا أستطيع أن أفعل لكِ شيئًا غير الاعتذار!

فردّت عليه بإندهاش:

– لماذا... ماذا حدث فجأة؟

– قبل عامين من اليوم وبسبب طيشي قتلت روحًا بريئة...

فنظرت إليه وقالت:

– لا تُكمِل رجاءً... وأخرج من غرفة أمي فهي لن تتحمَّل؟

– أنا أحبكِ نور... أنا تغيَّرتُ ولم أعد مثل سابق!

فقالت وهي تذرِف الدموع:

– كيف لمدمن وقاتل أن يتغيَّر!

– هل كنتِ ستحبينني إن كنت غير ذلك؟

– لا... لأنك فقير المسؤولية والانسانية، لكل دمعة سقطت اسم وأنا كل دموعي اسمها واحد؛ أنت سبب متاعبي وهَمِّي. أبي توفي بسببك، وأمي من الفاجعة مستلقية على سرير المستشفى... هل حبك لي سيعيد إليّ كليهما ويمحي لطخة اليتم عليّ؟!

وهكذا انسحب إيهاب من الحديث، وغادر غرفة المشفى وهو نادم على حياته السابقة.

مرّ شهران وهو بغرفته يعد الأيام ولا يخّف ألمه، ويزداد صداع رأسه. لم يتحمَّل ولم يصبر على ألم أيسر صدره، فإنسحب إلى أسهل طريق وعاد إلى ضعفه " المخدرات". لقد فرَّقته عنها الأيام وتعاكست طرقهما، فلم يجد لها عنوان، ولا مكان! حتى أنها غيَّرت مكان وجود والدتها.

وحاولت نور جاهدة أن تعيش بدون والدتها مع باقي عائلة والدها؛ لكنها لم تستطع فعل ذلك، وظلَّت المشفى عنوانها؛ طمعًا في أن تتحسَّن حالتها.

وهكذا مرَّت الأيام ودارت عجلة الحياة، انتهى الليل الطويل في حياة نور، وبدأ الصباح بنوره وطلَّت الشمس بشعاعها، وأفاقت الأم أخيرًا. وبعد طول انتظار، جاء نور

اتصال من المشفى يبشرها؛ فركضت إِلى هناك، وبريق الأمل في عينيها. ما لبثت أن وصلت إِلى غرفة والدتها؛ وبصرخة الآه، وعناق الشوق قابلتها:

– لو تعرفين يا أمي كم إِنتظرتكِ؟

بكت الأم في حضن ابنتها قائلة:

– أخيرا يا إِبنتي ابتسمت لنا الحياة!

اِنكسار .. إيمان مصطفى/ رمضان سلمي برقي .. مصر

أنظرُ الى السماء من خلف زجاج نافذة سيارة الأجرة المُضرج بالخدوش. الشتاء في بداياته، سماؤه ملبَّدة بالغيوم السوداء، رذاذ يهمي من علٍ؛ ينبيء عن قرب سقوط الأمطار، أو سقوط نبأ يسحقني! ولكن مالذي أتى بي؟ هل أنا واثقة مما قررتُ أن أفعله اليوم.

نسمات هواء باردة تهب وأنا أنزل من السيارة أمام برج زجاجي، ربما تعدَّت طوابقة الخمس عشرة طابقًا! ماذا لو كنتُ قد وافقت على كل ماطلبه مني؟ أقلها كنّا متزوجين الآن، ومعنا طفلين أو ثلاثة؛ ننعم بدفء الأسرة الصغيرة... ولكن؛ لماذا أتنازل أنا؟ لماذا يجب على المرأة التنازل دومًا أمام إصرار الرجال وتعنّتهم!

يتسلَّل البرد إلى جسدي، لا أدري من أين؟ أرتعشُ داخل معطفي الطويل، أهندِمه حول جسدي النحيف، والذي لم يكن نحيفًا منذ ثلاث سنوات. أُضبِّطُ حجابي حول وجهي الشاحب، الخال من أي تعبيرات، ثم أُعدِّل من وضع حقيبتي الجلديّة مواصلة طريقي إلى الباب البعيد. في إحدي الشتاءات السابقة، لمّا كنا بصحبة بعضنا؛ أهدانيه "أمير" قال لي ليلتها: "تتخلى المرأة عن معطفها إذا أحبَّت بصدق!"

تعجبت من كلماته، فسألته: لمَ؟

لكني الآن بتُ أعرف لمَ! وأدركتُ سذاجتي حينما سألته. ربما تعودتُ الأسئلة من مهنة الصحافة التي لطالما اتخذتها شغفًا وملاذًا. تحقيق هنا عن حادثة قتل، أو حريق، أو انفجار؛ رأسي كان يضج بالعناوين الحمراء، والصفحات المضرجة بالحبر، والصور المضرجة بالدماء، ولا يهنأ لي بال إلا عند رؤيتي لاسمي "فريدة عثمان" مذيلًا تحقيقاتي، ومقالاتي؛ أشعر آنئذ بأني ذات قيمة.

ليلتئذ؛ كنّا نجلس على الكورنيش، نتناول "الحمُّص". أجابني بابتسامة، أشعرتني بسذاجة الكون من حولي:

– الحب يدفئها؛ ألا تشعرين بالدفء وأنتِ معي؟

ابتسمتُ مطأطأة رأسي، لعله علم وقتذاك بأجابتي!

تعرفتُ على أمير، قبل تلك الليلة بشهور. ذلك الشاب الطموح، رجل الأعمال؛ في بداياته، وقد كانت لديه افكار اقتصادية لها مستقبل، فتقابلتُ معه بناءً على طلب الجريدة التي أعمل بها، وكان لقاءً ساحرًا. ضحكنا كثيرًا، تمازحنا، ألقينا الدعابات... قلتُ له:

– أنا اهتم بكتابات قضايا المرأة ومساواتها بالرجل أكثر من أي شيء!

أنا أعلم مدى كره الرجال لتلك الكتابات، وأحببتُ أن أظهر اختلافي ونبوغي في شيء لا يستطع النبوغ فيه، لأشعر ببعض الثقة بالنفس أمامه، وأنه ليس أفضل مني لأني الصحفيّة وهو الضيف؛ رجل الأعمال.

امتعض بتكلُّف متفرِّسًا وجهي، خجلتُ من وسامته المُبالغ فيها. كنّا في مقهى شهير؛ تناولت فنجان القهوة كي أخفي ارتعاشات قلبي، وارتعاشات يدي... قال:

– لِمَ تصرّ المرأة على المطالبة بالمساواة في وجهة نظركِ؟

انتفضتُ، تركتُ القهوة جانبًا، فهذا ملعبي الذي أحترف فيه قذف الكِور صوب الشِباك:

– لأنها تساوي الرجل بالفعل، وليست مخلوقة من الدرجة الثانية!

أجبته فضحك. كانت أولى مقابلاتي بضحكاته التي حُفرت بداخلي، وشكَّلَت أولى منحنيات الذاكرة صوب الجنس الآخر؛ ضحكات زلزلت أنوثتي، حطَّمتْ إيماني بأي شيء خلاف وجودها في حياتي!

– المرأة ليست بالطبع مخلوقة من الدرجة الثانية، ولكن المطالبة بشيء تدل على فقدانه! أليس كذلك؟

صعقني بكلماته، فصحتُ فيه:

– ماذا تقصد؟

– أقصد؛ لو أنكن واثقات ومقتنعات بأنكن مساويات للرجال ما طالبتن الرجال بالاعتراف بها!

شيء بداخلي؛ منعني أن أجادله أكثر، كي لا أخسر ثباتي الانفعالي وثقتي في نفسي، وأيضًا كي لا أخسر ضحكاته؛ شعرتُ آنذاك بأنه متمكن وواثق في نفسه، تساءلت: هل كل الرجال كذلك؟ هل هذا ما يميزهم عنّا؟

وانتهت المقابلة، ولم ينتهِ الوِصال. مكالمات منه للاطمئنان على نشر المقال، وردود الأفعال، وتبعتها مكالمات للجدال حول قضايا المرأة، وحول أشياء كثيرة. صرنا نتكلّم كل يوم تقريبًا، وفاجأني في مرة:

– ما رأيك في الزواج مني يا فريدة؟

ذُهلت، وكعادتي في طرح الأسئلة سألته:

– لماذا؟

ضحك؛ ربما سبب سؤالي لا شعوري، كي أستمتع بسماع ضحكته، لتزلزل أنوثتي، وتدغدغ خفقات قلبي المُتيّم به سِرًا!

– لأني أحبكِ فريدة؟ أم أن الرجل لا يجوز له عشق المرأة لأنها مساوية له!

ضحكنا وقتها، وبعد ذلك كثيرًا في مقابلاتنا ضحكنا، وخبرتُ إحساسًا جديدًا غريبًا عليّ؛ يوم تعانقت أيدينا، كُسرَت عوائق كثيرة، وزلزلت أنوثتي للمرة الثانية، كان رجل، عناق يده؛ أشعرني بأنه رجل، واعترفتُ له بحبي المكبوت داخل ثنايا أعماقي.

كان دائم الغيرة عليّ، يقول دومًا:

– المرأة مكانها البيت، وليس مزاحمة الرجال، وتعريض نفسها لنظرات هذا، واحتكاكات ذاك، وتحرش هؤلاء!

أصيح فيه:

– أنت قديم جدًا يا أمير؟

يضحك:

– أنا أحبك، وأغار عليكِ حتى من ذلك القلم الذي تحتضنه يداكِ دومًا، وليس معنى قدمي أني على خطأ! أنا لا أريد لكِ النزول إلى الطرقات وتعريض نفسك للخطر، وللناس بأصنافها غير المأمونة!

في ذاك اليوم، أسفل عمارتنا ليلًا، أوصلني بسيارته، وقد كان الطريق خالٍ من المارة، وفجأة قبَّلني على خدي، فاستسلمت، وعندما اقترب من شفتيّ هربت! ولكني بعدها ندمت: ليتني ما هربت!

القُبلة شعور ثالث جديد عليّ، أجمل من الضحكات، ومن عناق الأيدي، ولكنها بمثابة تمهيد لأشياء ربما كانت أجمل بكثير! أحببته، وتمنيته زوجًا، وحلمتُ به بين أحضاني، وعلى فراشي طيفه يؤنسني ويدفيء مضجعي، ولكني أفقتُ على واقع صدَمني!

في مكتبه منذ ثلاث سنوات؛ كنت بانتظاره، وقد كان يومًا شاقًا لي؛ طوال النهار في تحقيقات صحفيّة مهمة في شوارع القاهرة. جاء متغيِّر الوجه حانق، فتح باب الغرفة، فقلتُ له بابتسامة:

– أمير... افتقدتك اليوم كثيرًا؟

ولكنه قال بغضب:

– أين كنتِ طوال النهار؟

حدَّجته متعجِّبة:

– أين سأكون؟ في الشارع بالطبع؛ أمارس عملي!

قال والشرر يتطاير من عينيه الجميلتين:

– وانا كم مرة قلت لا تنزلي إلى وسط الرجال! كم مرة نبهتُ عليكِ؟

وقفتُ وقد تغيَّر وجهي:

– ألا تعلم يا أمير أني صحفيّة ومكان عملي هو الشارع!

– انظري... صراحة لا أريد نزولكِ مرة أخرى!

قلت غاضبة:

– تقصد الشارع... سأحاول اقناع رئيس التحرير في هذا الموضوع.

وهممت بالجلوس ولكنه أردف قائلًا:

– لا... بل أريدكِ أن تتركين عملكِ؛ فكري معي؛ سنتزوَّج قريبًا، ولا حاجة للعمل أما بخصوص المال...

لم أتركه يكمل حديثة، قاطعته غير مصدِّقة:

– أمير هل تمزح معي؟ حقًا أتريدني أن أترك عملي؟

أجاب بزفرة ووجه قاس لم أألفه منه:

– أنا جاد لا أمزح!

قلت مؤكدة:

– أنا لا أعمل من أجل المال بل إنه شغفي؟

هممتُ بالرحيل، وفتحتُ الباب، فقال وأنا مغادرة:

– سانتظركِ فريدة حتى تتركين عملكِ، وتعودين لي؟

نظرتُ له مُصرَّة:

– مستحيل!

ورَحَلتُ ورَحَلَتْ عني ضحكاته، ورَحلَتْ عناقات يديه ليدي، وقُبلته على خدي، وتدفئة طيفه لفراشي، وأصبحتُ وحيدة. وصدق أمير؛ فقد زايلني دفء لم أشعر بوجوده إلا بعد فقده! سخرتْ مني أمي، وأبي كذلك! حتى أخوتي الصِبية والأصغر مني، كلهم قالوا: اتركي عملكِ وتزوّجي؟ وأنا لم أبال لهم، فقد قررت ونفَّذتْ: ماذا إن طلقني بعد زواجنا؛ أأتسوَّل كي أطعم نفسي! كانت سلوى نفسي أي مبرِّرات.

تخطى سني الثلاثين ولازلت وحيدة؛ أرفض من يتقدَّم لي من رجال للزواج؛ هم قليلون وكبار في السن دومًا، الفرق بيني وبينهم عشرة سنين ونيف. أصبحتُ أرى نظرات الشفقة في عيون الزملاء، والجيران، وحتى أبي وأمي وأخوتي، وبتُ أسمع كلمة تتردَّد من حولي كثيرًا: "عانس". كلمة لم أكن أعرفها أو أسمعها من قبل!

مللتُ الوحدة، ومللت تناسي أنوثتي بعملي، والانشغال به!

وهاأنذا الآن أقف أمام مكتب "أمير" أعود إليه بعد ثلاث سنوات، ومستعدَّة لتلبية أوامره كلها ثمنًا للوحدة والحِرمان منه. لم أتصل به، ولكنني أصررتُ على مفاجئته، أو ربما مفاجأة نفسي.

أتيبس لحظات أمام لافتة تحمل اسم: "أمير محجوب_ رجل أعمال" ثم أدلفُ إلى المكتب، وللوهلة الأولى يبدو مميزًا، ذو أثاث فاخر، وتصميم رائع يدل على تبدُّل حال أمير. لم تكن عنده مُساعدة من قبل. أقول للمُساعدة:

– مساء الخير أريد مقابلة أمير لأمر شخصي؟

ترد بابتسامة:

– سابلغة حالًا، رجاءً انتظري؟

تتحرَّك خطوتين، ثم تعود مستفسرة:

– ولكن ما هو اسم حضرتكِ؟

أقول باندفاع:

– الصحفيّة –ثم بتوتر– "فريدة عثمان".

تومىء برأسها وتذهب لتخبره. أجلسُ فوق مقعد وثير أفكِّر: عمله انتعش كثيرًا...

لاريب أنه الآن أحد أكبر رجال الأعمال في مصر.

– إنه في انتظاركِ!

تُقاطِع المُساعِدة أفكاري بها، فأدلفُ صوب حجرة المكتب؛ خائفة من المجهول، ومن رؤيته ثانية، ومن سماع ضحكاته! أطرقُ الباب طرقة خفيفة، وهنا أسمعه يتحدَّث عبر الهاتف قائلًا:

– سأتأخر حبيبتي الليلة قليلًا؛ لاتقلقين عليّ؛ فقط اطعمي الولد وانتظريننى لنتناول الطعام معًا؟

تتجمَّد أطرافي، وينتفض جسدي بشدة، لحظة تمر وأجده أمامي!

ينظر إليّ بدهشة بالغة، ومن أثرها يترك الهاتف من يده، يتلجَّم لساني، ولا أجد سوى الركض حلّا، أتشبَّث بقشَّة الهروب غير مبالية لنداءاتة هو ومُساعِدته الغبيّة؛ راكضة نحو الأمطار التي تنهمر بالخارج، تنهمر ساحقة أمنية بداخلي؛ أمنية ولدت منذ أكثر من ثلاث سنوات.

أنا والسيد: دونكان .. محمد حليم .. مصر

مرحبًا؛ أنا «لوران» كاتب مغمور بعض الشيء؛ لديّ مؤلفات كثيرة أحتفظ بها بداخل دُرج مكتبي. وصلتني اليوم دعوة من السيد «دونكان» يدعونّني لأقيم بمنزله لمدة ثلاث عشرة يومًا؛ لكتابة سلسلة من القصص التي تدور بحياته اليومية. بالفعل قبلتُ دعوته وهيأتُ نفسي للذهاب إليه، وأخذت معي كل ما يلزمني، لإتمام هذه المهمة.

في تمام الساعة العاشرة مساءً وصلت إلى منزله..إنه يسكن في حي بأرقى مناطق العاصمة باريس، واستعديتُ لرن الجرس؛ فتح الباب رجل قصير القامة، عينيه جاحظتين، زار الخريف رأسه ولم يستبدل شعره، والربيع قارب على مغادرته.

أحسن استقبالي: عجبًا إنه يعيش وحده بالرغم من كل ما يملكه!

تبادلنا أطراف الحديث معًا؛ أخبرني بما يريدني أن أفعله وبعد ذلك أدخلني إلى الغرفة التي جهَّزها لأقيم فيها، وقال:

–أتمنى أن تكون ليلتك الأولى معي؛ مريحة لك.

وتركني وذهب قبل سماع ردي عليه! بعد ما أغلق الباب انفجرتْ المصابيح الموجودة بالغرفة. استلقيتُ على السرير بملابسي وغصت في النوم.

***

(يومي الأول مع السيد «دونكان».)

سَطَعَتْ الشمس وأضاءت كوكب الأرض؛ استيقظتْ العصافير النائمة على الأغصان، وأمسكتْ كل واحدة بالنوتة الموسيقية الخاصة بها،وبدأت الأوركسترا بالعزف...

"صو صو صا صو صو.صِو صِو صِو صا صا صا..." عذرًا.. عذرًا؛ لقد اندمجتُ قليلًا لنستكمل.

استفاق السيد «دونكان» على صوت الأنغام الطبيعية للعصافير؛تثاءب كثيرًا، وكانت أخر مرة قوية وهو يستعد لفتح شرفته...

– إحذر ياسيد «دونكان» يا إلهي!

قال بعد ما فتح شرفته:

– يا له من يوم جميل.

تساقطت أعشاش بعض الطيور الآمنة، وتطاير ريشها أمام عينيه؛ صدَرَ عنها أصوات مغايرة للألحان الموجودة بالنوتة الموسيقية، رفع حاجبيه لأعلى وقال بغضب:

– ألم أخبركم من قبل بأن هذه الحديقة ملكية خاصة؟

عاد إلى الداخل؛ فتح صنبور المياه ووضع رأسه تحت المياه الباردة تراختْ عضلاته المختبئة خلف جلده مما جعله يحرِّك مقبض الصنبور على العلامة الحمراء الساخنة.

صبّ القهوة باردة، أخرج "التوست" من الجهاز محترقًا؛ جلس أمام التلفاز بعد أن

وضع عليه "مج" القهوة، وأخذ يقلِّب القنوات، استوقفه إعلان بإحدى القنوات الرياضية، وتابع مضمونه بعناية:

"مرحبًا بكم أعزائنا المشاهدين؛ اليوم ستقام مسابقة الخيول التي لطالما انتظرتموها؛ المسابقة تحمل اسم "سبارتكوس" الحصان الأسود. هيا ماذا تنتظرون؟ بادروا بحجز التذاكر الآن على الأرقام التي ستظهر أمامكم، وضعوا رهانكم ولا تخافوا، ولا تخافوا ، ولا تخافوا؟"

– سيد «دونكان» استيقظ لنكمل؟

حرك يداه إلى الهاتف وحجز تذكرة، تهيأ للذهاب، أغلق باب منزله بعنف.

***

(يومي الثاني مع السيد «دونكان».)

كلما قال وهو في طريقه للمسابقة لمن يراه:

– صباح الخير.

سقط على الأرض، فقال وهو مستغربًا:

– يبدو أن الهواء اليوم به نسبة عالية من المخدِّر!

وأكمل طريقه وهو واضع على أنفه منديلًا خوفًا من استنشاق الهواء.

***

–لا... لا؛ ليس هذا ما قصدته من وضع المنديل.

– يا له من يوم متعب، لا تغضب سيد «دونكان» سأغيِّرها.

***

كلما قال وهو في طريقه للمسابقة لمن يراه:

–صباح الخير.

سقط على الأرض، فقال مستغربًا:

– يبدو أن الهواء اليوم به نسبة عالية من المخدِّر.

وأكمل طريقه وهو واضع على أنفه مندلًا؛ لأنه يعرف جيدًا أن الوقاية خير من العلاج.

–فعلًا هذا هو مقصدي من وضع المنديل،شكرا لك.

– العفو.

***

تعثَّرت قدميه في الطريق، واتسخت ملابسه الخارجية والداخلية! وقال:

– ما العمل الآن؟

دخل إلى إحدى المحلات في الطريق وأشترى ملابس جديدة: بدلة سوداء، "وكرافت" أسود، وقميص أسود، ونظارة سوداء. وصل إلى المكان المقام فيها المسابقة؛ أستلم تذكرته ووضع رهانه على "سبارتكوس" الحصان الأسود. أشترى منظار لمتابعة السباق، وأشترى أيضًا جريدة!

ازدادتْ صيحات الغضب للمراهنين، وهو يجلس منتشي لتقدم سبارتكوس على كل منافسيه، تفصله دقائق على حصد الجائزة الكُبرى. طوى صفحات الجريدة،وتوجَّه بثقة نحو مكتب المراهنات ليستلم الجائزة. بمرور ثوان قبل وصوله إلى المكتب؛ تعثَّر الجواد وخرج من السباق مُصابًا بكسور مضاعفة! قال والدموع تملأ عينيه الجاحظتين:

– كان يجب عليّ أن أراهن على جميع الخيول!

استدار واتجه إلى السلم الكهربائي ليغادر؛ فجأة انقطع التيار الكهربائي عن السلم وخرج منه دخان كثير؛ وجّه بوصلته إلى السلم العام وأثناء نزوله تعثَّرت قدميه برباط حذائه وسقط عليه وأسقط معه الجميع، قال وهو يربط حذائه وسط الأجساد:

– بئس الأمر! ما هذا الحظ السيء الذي يطاردني اليوم؟ ولكني قرأت اليوم عن برجي بأن ستحدث لي أشياء عظيمة ستغيِّر حياتي!

قرَّر الذهاب إلى برج إيفيل، ولحسن الحظ أن البرج به أعمال صيانة؛ قرَّر العودة إلى المنزل قانعًا نفسه بأن هذا اليوم ليس يومه على الأطلاق؛ وجد منزله والمنازل التي بجانبه متفحمة!

***

سأرحل الآن قبل أن تصيبني لعنته الأبديّة، فأنا لم أكن أعلم بهذا الأمر من قبل، وأنتم خذوا حذركم؟

السور .. هشام وهبي .. المغرب

نظر إلى ساعته الذهبيّة في سرعة وارتباك، كانت تشير إلى العاشرة إلا ربع صباحًا؛ أجال بصره يستكشف المكان ثم... اتسعَتْ عيناه في فزع.

كانت سيارته قد أصابها عطل مفاجئ. ثم استقل سيارتي أجرة أخْرَتَاه عن موعد اجتماع مجلس إدارة الشركة، فقد انتظر في الطابور طويلًا، وحتى عندما وصل دوره وتلكأ في الصعود قليلًا إلى السيارة، سبقه بعض الغوغاء دون أن يعيروه اهتمامًا، ولم يلتفت أحد من الواقفين إلى احتجاجه الصامت، فتيقن أن الأمر عُرف لدى القوم، فشدّ على حقيبته الجلديّة في حزم وغضب، وانتظر سيارة الأجرة القادمة، ليندفع في سرعة وخِفّة وصولها جالسًا في المقعد الأمامي.

وَصَلَ السائق إلى محطَّة سيارات الأجرة، نَزَلَ ثم استقل سيارة أجرة صغيرة، وهو يمني النفس بالوصول مسرعًا إلى مقر الشركة، كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا عشر دقائق. موعد الاجتماع في التاسعة، والمدة التي تفصله عن مقر الشركة عشرون دقيقة، سيتأخر لا محالة وسيؤنبه مدير الشركة. منذ أشهر وهو ينتظر هذا الاجتماع، ليقدِّم مشروعه الجديد أمام الشركاء الأجانب وأعضاء مجلس الإدارة. أغمض عينيه

في قلق وتوتر عندما جالت في ذهنه هذه الخواطر، ثم التفت إلى سائق السيارة البدين:

– أسرع... أسرع؟

قطب السائق حاجبيه ونظر إليه في غضب، وفي لحظة تناقصت سرعة السيارة تدريجيًا، لتسير ببطء. رمقه في استنكار قائلًا:

– ألا تزيد من سرعة السيارة قليلًا؟!

طال الصمت بالرجل، ليجيبه بعد فترة قائلًا:

– كلكم هكذا يا أصحاب البدلات وربطات العنق، تظنون أن كل شيء لكم. حتى الشارع وسيارات الأجرة، لن أستغرب إذا حاولتم امتلاك الهواء الذي نتنفسه.

استغرب ردة فعله المفاجئة، وهمّ بالرد عليه، لكنه آثر ألا يعيقه شيء عن مقصده. قال في هدوء:

– من فضلك. إنني متأخر عن موعد مهم. وستزيدني تأخيرًا بتباطئك.

انبسطت أسارير السائق فجأة، وندت عنه ابتسامة ماكرة:

– أها، موعد، وتريد أن تصل في الوقت! لا تقلق سيكون هذا مثيرًا.

ثم انعطف على زقاق جانبي وقد زاد من سرعة السيارة، والتي بدأت تلتهم الطريق بين الأزقة، حتى وصل إلى شارع تؤدي نهايته إلى الجزء الجنوبي للمدينة.

اتسعت عيناه دهشًا فصاح به:

– إلى أين... إلى أين تسير بي؟

– قلت لك لا تقلق؟ سنقوم بجولة قصيرة في بعض أحياء المدينة، سيكون هذا ممتعًا، أليس كذلك؟ هاهاها!

تجمَّد في مكانه للحظات، ثم أمسك بناصية رأسه في استسلام: إلى أين يذهب بي هذا الأحمق! ماهذه الأقدار التي ألقتني في طريقه.

تنفَّس بعمق، ثم التفت إليه في هدوء:

– أِنصت؟ سأدفع لك ما تشاء؛ انعطف الآن وعُدْ فقد تأخرت.

ضحك السائق في سخرية:

– ألم أقل لك... كلكم تفكرون هكذا؛ كل شيء يمكن أن تشتروه بالمال. ثم أكمل بجديّة مصطنعة:

– لكنني الآن في الطريق إلى وجهتك، أحببت فقط أن أجعلك تتجول قليلًا وتشاهد الناس والحياة في المدينة.

غضّ بصره في يأس، وهو يلعن الظروف التي جمعته بهذا الغبي، وتمنى للحظة لو ينقض عليه ويخنقه بيديه.

توقفت السيارة فجأة في مكان شبه خال، قرب مباني بيوت كبيرة متفرِّقة. نزل السائق ثم استدار حول السيارة، فتح الباب ثم جر جسده النحيل وألقى به خارجًا:

– استمتع بوقتك أيها الرسمي، بالمناسبة؛ ستسير من هذا الاتجاه لمدة ربع ساعة، وهناك يمكن أن تستقل سيارة أجرة تقلّك إلى عملك؛ ألا تتأخر عن موعدك... هاها... يومًا طيبًا.

نَفَضَ عن ملابسه الغبار الذي طالها، وهو يتابع السيارة في غضب. ثم أجال بصره في الأرجاء. ماهذا المكان يا ترى! بيوت واسعة مسوَّرة تبدو كالمهجورة؛ تحيط بها أراض خالية. يمد بصره بعيدًا. كانت هناك بعض الأشجار والعشب يحيط ببحيرة صغيرة. تسمَّر في مكانه فجأة وقد أثارت هذه المشاهد صورًا في ذاكرته: رأيتُ هذا المكان من قبل... لكن مهلًا! ثم تذكَّر فجأة أن هذا المكان خارج المدينة؛ قضى فيه جزءًا من طفولته المبكرة، حيث كان يصطحبه أبوه في بعض أيام العُطل المدرسيّة ليستمتع بالمكان.

نظر حوله في ذهول، فاسترعى انتباهه سور عال لإحدى البيوت المنتشرة بالمكان؛ اقترب منه؛ كانت تحفّه أشجارًا باسقة من التفاح والرمّان. عادتْ به الذاكرة إلى طفولته، عندما كان يتسلَّل إلى السور ويتأمله في إعجاب ومهابة.

ولكنه قرَّر ذات يوم أن يعتليه، بحث عن ثغرة فيه، ثم استعان ببعض الأحجار وجذوع الأشجار، ليصعد بعد مشقَّة ويتعلَّق بأغصان شجرة تفاح قريبة. أثاره منظر حديقة البيت الداخليّة، لكنه لم يجرأ على القفز إلى الداخل؛ اكتفى بجمع بعض التفاح والرمّان من

الشجيرات القريبة ونزل عائدًا. اعتاد بعد ذلك أن يقطف الثمار في غفلة من أهل البيت.

اقترب من السور، وقد أطربته الذكريات؛ كان هاتفه لا يكف عن الرنين، أخرجه من جيبه. يتصل به الرئيس تارة ونائبه وأصدقاؤه الموظفون تارة أخرى؛ يغلق الهاتف، ثم يجرِّده من بطاريته ويضعه في جيبه. يرفع رأسه متأملًا السور في نشوة، وقد أحس براحة عميقة تجتاحه فجأة.

خلع سترته وحذاءه الجلدي، ثم دار حول السور يبحث فيه عن ثغرة يصعد منها.

القمر الدامي .. رمضان سلمي برقي .. مصر

يمتد سِماط الظلام فوق قباب المدينة، حتى يصير الظلام سمة غالبة، مجرجراً خلفه جبال من صمت، لتجثمُ فوق كل مبان القاهرة وشوارعها، وتستسلم لهما –كغير عادتها– دون مقاومة.

يتجلّى القمر في السماء، مضرجاً بدمائه، يبدو مثل عين حمراء، جفّ دمعها، وجافاها النوم الهانيء، فبكتْ سنيناً حتى أُدميتْ وجفّتْ.

كيف فَعَلَتْ ما فُعِل؟!

في ضوء أبيض ناعم؛ تنتصب مستندة فوق درابزين الشرفة؛ تتساءل ممتعضة الوجه، وقميص نومها الأسود القصير، تداعب أهدابه نسمات الهواء القادمة من أسفل، فتلمع أفخاذها اللدْنة.

نسمات الهواء مُشبَّعة برائحة النيل، حاملة معها موجات صوتية لغناء صاخب ذات مدى قصير، يغيض صداها ويعلوا بالأجواء؛ تراقب مصدرها بعينين شاردتين؛ ترنوان إلى تلك المراكب الشاقة النيل بأبهة؛ مُتزينة بأنوار كثيرة ملوّنة بعشوائية.

–عشوائيّة!

تنطقها مُتهكمة، ثم تعود لشرودها!

أمام ناظريها؛ يتغلغل المركب خلال صفحة النيل كشهاب مشتعل في أحضان السماء المُظلمة، فيَشُقه لنصفين: نِصف لهم، ونصف لنا... لا بل النصفين لنا. تفكِّر: كيف يعيش أولئك دون طموح؟ كيف يضحكون ويظهر عليهم الرضا؛ بيد أنهم محرومون من تلك المُتَع التي يفصلهم عنها بضعة أمتار من مياه، وكورنيش متهدم؛ يعمل كملهاة لطفل صغير؟ مؤكد أن رضاهم يُخفي خلفه حقد وخُبث وفيرين.

زفرت بضيق. لقد كانت قديماً راضية بتلك الملهاة؛ تتذكَّر تلك القبلات، والأحضان المسروقة، في بُقع الظلام فوقه، تحت شجيرات الزينة الكالحة، مع أجمل شباب حارتها، وحارات المناطق المجاورة؛ هؤلاء من تُحبهم فقط، وتنسج قصص حب تدوم لمدة لقاء على الكورنيش، وتنتهي بعد العودة إلى تلك الشقة التي تسكنها.

الشقة من غرفة وصالة، وحمام ومطبخ صغيرين بالطابق الأرضي، تتقاسمهم مع أبيها وأمها، وأخواتها: فتاتين، وصبيين، هي خامستهم وأكبرهم؛ فقد اجتازت "آسيا" الثلاثين من عمرها.

في هزيع الليل الثاني؛ تفتح عينيها؛ ثم تبتسم لمّا تسمع تناغيهما بالغرفة المجاورة، ولمّا تتعالى تأوهات والديها الحميمة، تحرِّك إحدى يديها إلى أسفل الغطاء، والأخرى تقبض على نهدها، وتتأوَّه هي الأخرى، ولكن في صوت خفيض؛ تشعر كلما انخفض بلذّة.

أو ربما تقترب من أحد أخوانها الصبية، بينما يغطون في نوم عميق، تحتضن أحدهم بشدة حتى تهدأ سَوْرتها، وتُمطر شهوتها كغيث يروي جدبها!

لم تتزوج بعد؛ فلم تكن تُكمل مع أحد خُطابها أكثر من شهر. إن كانوا جادين فمصيرهم الهرب بسبب عدم اكتمال تجهيزها، فوالدها عامل، بالكاد يُكمل أجره مصاريف البيت، ومدارس الصغار. أو ربما ترفضهم هي؛ فأغلب الرجال يسقطون من حسبانها في شهر لاغير. تستطيع بعد أقل من أسبوع من خطبتها أن تتأبطهم؛ مثل حقيبتها الجلدية، وتأمرهم وتنهيهم تحت تأثير حبها وجمالها، وتهديدها لهم بالرحيل، وما عليهم إلا السمع والطاعة، حتى أن أحدهم هدَّدها بإلقاء نفسه في النيل؛ إن هي رحلت عنه. تركته يهم بالقفز من خلفها وصراخه يعلو، ولم تهتم إن كان قد فعلها أم تراجع بسبب برودة المناخ.

تقول دومًا لصديقاتها اللائي لا يمتلكن من جمالها النصف، حينما يجلسن بمدخل البيت يثرثرن ليلًا:

– إنهم رجال بالبطاقة!

ثقتها في نفسها، تجعلهن يتحصّرن على بختهن المائل مغمغمات بطلاسم لا تفهم منهن شيء!

فتضحك عليهن بكبرياء مداعبة خصلات شعرها الناعم شاردة.

تلك الرائحة التي كانت تتناوب على أنفها بمجرد دخولها حارتهم؛ بالوعات الصرف المنفجرة دائماً، والتي رغم تقززها منها، تجدُ متعة كبيرة –كي تَعبُر بِرَك الوحل– في رفع ثيابها إلى أعلى والكشف عن سمانتيها، والتضييق على مؤخرتها التي تبد كأنها مكوّرة بإزميل نحّات مصري قديم، ليشخص كل من حولها أبصارهم إليها، ممنيين أنفسهم بلقاء حميمي معها، ولو في حُلم منام أو أمنية يقظة؛ لينتقمون من شبحها، مادام جسدها عصيّ عليهم؛ ليُفرغون أحمالًا ملتهبة من حُرقة وتأوّهات عجز... هؤلاء القبيحين مظهراً؛ هم التي لا تفضِّلهم!

"سيقان لم تخلق لمثل هذه الحارة، يا ألف خسارة!"

تكثر دوماً تمتماتهم المقهورة جرّاء أنوثتها المُخالفة لجغرافية المكان والزمان؛ دائماً ما تشعر وكأنهم يقرأون أفكارها؛ تُقسم في نفسها: إن كلامهم في محله!

تينك العينين الخضراوين الواسعين، لحور ليسا لبشرية، وذينك الخدين المُلتهبين بحمرة المريخ، يلهبن من يراهن بلهيب سَقَر، وشفتاها اللتان تقطران دَماً بعدد قطرات دماء ضحاياها الذين يقتلهم تجاهلها إياهم، وجسمها المنحوت من قالب زبد، وقامتها الهيفاء: "تستحق لقب ملكة جمال" هكذا تمتم بها أحدهم ذات نوبة غَزَل.

في ظلام الكورنيش؛ لم تكن تعلم آنذاك أن من خلفها رائحة أجمل من رائحة حارتها بكثير، براح لم تعتد عليه من قبل.

– ستكشفين عن ساقيكِ يا "آسيا" ولكن لتخوضين بهما بين تلال من المال، وقناطير من الذهب والفضة، وحرير ناعم كجسدكِ اللدن؟

نصحتها صديقة بتلك الكلمات؛ كانت قد اِغتنت فجأة، وتركت الحارة بلا رجعة، وركبت سيارة فارهة، وارتدت البناطيل الجينز الممزَّقة على الأفخاذ والرُّكب. زارتها "آسيا" في شقتها الجديدة الواسعة، التي تطل على النيل من برجٍ عالٍ.

لا تملك نصف جمالي، وأصبح لديها شقة في برج كهذا... إذاً أنا سأشتري البرج ذاته! قالت لنفسها، وبعد تفكير قليل، قرّرت أن تستغل الكنز الوحيد الذي تمتلكه. وقتذاك؛ قبّلتها صديقتها بشفتيها طويلًا، وأقسمت عليها أن تبيت معها في غرفتها وعلى سريرها:

– ... وبين أحضاني ياحبيبتي؛ فقد توحشتك كثيرًا.

واكتشَفَتْ أن هناك، خلف جدران الأبراج الأسمنتية، وبغرف الفنادق الفاخرة، رجال يدفعون آلاف الجنيهات من أجل أشياء كانت تقدمها قديمًا بالمجّان! قال لها أحد أولئك ذات مرة:

– أني أحبكِ أكثر من "الكرسي"؟

تذكَّرته على التلفاز، كان عمره قد تخطَ الخمسين؛ يظهر دومًا إما يصيح ويتهم غيره بالعمالة والتآمر، وإما أن يدافع عن نفسه ضد من اتهمهم لانهم يتهمونه باستغلال

منصبه لتمرير صفقات مشبوهة. وزير... ربما. هي لا تشغل بالها بهم قدر ما تشغل بالها بالسيطرة على جيوبهم، حينئذ قالت له: كفاك كذب؟

فنزل جاثيًا أرضًا أمامها، وأمرها بأن تركب على ظهره، وتقول له: "شي يا حمار؟"

وفعلت متعجِّبة ضاحكة.

– صدقيني أحبك؛ الحمير لا تكذب؟

ضحكت من اعترافه بغُنج:

– ولكنها تمكر!

***

مرّ عليها زهاء سبع سنوات من المُتعة؛ أصبحتْ تملك سبع شقق بأحد الأبراج المُطلَّة على النيل. أسرتها التي لم تبدِ اعتراضًا على "النعمة" اخذتهم معها. وها هي تقف الآن في شرفة أحدى شققها بطوابق البرج العليا، لتتأمل تلك الكائنات التي كانت تعيش بينهم قديمًا، بتلك المراكب المُبهرجة الصاخبة ممتعضة التقاسيم.

تنظر إلى القمر الدامي مُنبهرة وكأنها لم تلاحظه إلا الآن؛ وتتذكَّر أنها سمعتْ بالأخبار عن تلك الظاهرة الغريبة التي تتجلى الآن أمامها سماءً. تُشعل سيجارة من العُلبة فوق المنضدة خلفها، ثم تعود لتتأمله طويلًا من خلف سحابة دخان نفثتها تواً.

تسأل القمر، ودمعتان تتسللان من عينيها إلى أسفل:

– أجبني أرجوك: إلى أي النصفين أنتمي أنا؟!

ورقة .. أحمد جمال الدين رمضان .. مصر

اجتاز الطفل الشارع رغم السيارات العابرة بسرعة؛ حَمَلَ بضاعته الرخيصة على ظهره.. وبدأ يطرِق نوافذ السيارات منادياً عليها.

رمقه بعض أصحاب السيارات بلا مبالاة.. و البعض باستنكار أحياناً خاصة عندما يواصل الطرق على النوافذ بإلحاح. تلقى كلمات السُباب من بعض السائقين.. وقابلها بابتسامة بلهاء!

انتقل إلى شارع آخر؛ لساعات ظل يتنقَّل ويدور بين السيارات. تملَّكه التعب قليلًا فاتجه إلى الرصيف. جلس عليه يستريح لبرهة ويستعيد أنفاسه اللاهثة.. رمى بضاعته بجانبه وأحصى نقوده القليلة.. رفع عينيه للشمس التى تحرقه بحرارتها.. تلفَّتْ حوله بحثاً عن شئ يستظل به؛ لم يجد سوى صفحة شبه ممزقة. صفحة من جريدة قديمة؛ حَمَلَها الهواء حتى استقرَّتْ على بعد خطوات منه. التقطها و طواها على رأسه.. نَظَرَ إلى الشارع منتظراً أغلاق الاشارة الضوئية حتى ينطلق مرة أخرى. مَسَحَ بضع قطرات من العرق بطرف قميصه المتسخ.

هبَّتْ نسمةً من الريح أطارت الصفحة من قبضة يده الضعيفة.. التقطها مرة أخرى قبل أن تطير بعيداً.. وقبل أن يضعها على رأسه مرة أخرى؛ لَمَحَ صورة فيها؛ بسط الصفحة أمامه قليلًا؛ صورة عائلة صغيرة؛ أب وأم يحتضنان ابناءهما بسعادة. لم يدرك أنه أعلا؛ لم يكن يجيد القراءة والكتابة على أى حال.. كل ما لَفَتَ نظره تلك الابتسامة التى تضئ وجه كل واحد منهم وقد لفَّت الأم بيدها على الأبناء من جهة.. والأب من جهة أخرى.

سَرَحَ قليلًا مع الصورة؛ ارتسمَتْ على وجهه –بلا وعي– ابتسامة صغيرة قتلتها أشعّة الشمس الحارقة. اِنتَبَهَ فأحكَمَ وضع الصفحة فوق رأسه مرة أخرى.

شَرَدَ بعيداً و تساءل فى حيرة: لماذا يبتسم الأبناء فى الصورة بهذا الشكل؟ربما سببه الأحساس بالأمان! ذلك الأحساس الذى لم يعرفه مذ هرب من الملجأ لقسوة المعاملة هناك.. وقبلها لم يعرف معنى العائلة! التقطوه صغيرًا من أحد الحقول المهجورة.. ولم يستدلوا على أهله. هكذا أخبروه فى الملجأ.

عندما يسمع أحدًا يتكلَّم عن العائلة؛ يشعر بشئ غامض! ربما لأنه لم يعرف يومًا معنى تلك الكلمة أو يدرك قيمتها! حَرَصَ كثيرًا على أن يعرف معناها لكنه فَشَل! مذ هَرَبَ من الملجأ لَعِبَ عِدّة مرَّات فى الشارع مع أطفال فى مثل عمره؛ بعضهم يمنعه من اللعِب معهم بتأفف.. والبعض يقبلوه بلا اهتمام!

عندما يرى كل واحد منهم يتكلم عن عائلته؛ يلتقط أحاديثهم بتركيز واهتمام. م يستطع أن يكوِّن صورةً واضحةً رغم ذلك.. ولكنه يشعر أنهم يتكلَّمون عنها بلهجة تحمل كثيرًا من الشعور بالأمان والدفء؛ الشعور الذى أفتقده دومًا.

اِنْتَبَهَ على صوت فرملة سيارة؛ أُغلِقَتْ الأشارة الضوئية الآن. اِلتَقَطَ بضاعته التى وضعها على الرصيف بجواره.. نحّى الورقة جانبًا؛ انطلق بسرعة يسابق الزمن ليعرض بضاعته لأصحاب السيارات المنتظرة.

اِلتَقَطَتْ عيناه أحد السيارات على الجانب البعيد _تبدو فارهة! تقودها امرأة بجوارها طفل؛ ربما تعطف عليه وتمنحه بعض النقود! اِنطَلَقَ يقصدها.. لم ينتبه أن سيارة أخرى تأتى مسرعة رغم توقف الأشارة!

لم يشعر سوى بلفحة قوية من الهواء ترتطم بوجهه.. فَرمَلَ صاحب السيارة فورًا بمجرد أن عَبَرَ الطفل أمامه.. وتجمَّدَ الطفل فى مكانه وهو يرى الجسم المعدنى المنطلق بسرعة نحوه! قبل أن يغمض عينيه حتى لا يرى يد الموت الممتدّة نحوه، صدمته السيارة بقسوة!

توقّفَتْ الحركة فى الشارع؛ نَزَلَ صاحب السيّارة فورًا وهو ينهال بالشتائم على الطفل الذى عَبَرَ أمامه فجأة. تجمَّع المارة حول كتلة اللحم والدم الجديدة الملقاة على الطريق؛ الطفل مُمَدّد على ظهره؛ تنساب منه بِركة دماء تزداد تدريجيّاً.. بيده ما زال يقبض على كيس مُمَزَّق يحمل فيه بضاعته التى تناثرتْ محتوياتها بعيدًا.

أسرَعَ شخص ما يخترق الجمع بصعوبة.. صائحًا بالناس أنه طبيب.

ما زالت قدما الطفل تنتفضان بشكل طفيف.. بينما سَكَنَ باقى جسده تقريبًا. لحظات كَشَفَ عليه الطبيب.. كانت انتفاضة قدميه قد هدأت تمامًا.. وسَكَنَ جسده بينما عيناه لا زالتا مفتوحتان؛ تتطلّعان بشرود إلى نقطة ما بعيدة غير مرئية! هزّ الطبيب رأسه بأسف.. دارى البعض أعينهم.. بينما تناثرتْ همهمات أسف بين المارة المتوقفين.

ألقى أحد المارة نظرةً على الجثة الحديثة مفتوحة العينين؛ بحث فى المكان عن شئ يغطيها به. اختفى لثوان ثم عاد.. تقدَّم مخترقاً الحشود؛ غطّى وجهه بورقة من صحيفة؛ لم يجد غيرها بعد أن سَبَلَ عينيه برفق.

اِمتَصّتْ الورقة دماء الطفل فورًا. ورقة من صحيفة قديمة لم يلاحظ أن على ظهرها ترتسم بوضوح؛ صورة عائلة صغيرة تبتسم بدفء!

خطأ رومانسي .. طارق قديس .. الأردن

وَقَفْتُ في البابِ كما الحالُ كَلَّ خميس وحَقيبَتي في يَميني. نَظَرتُ إلى زِرِّ الجَرَس. قَرَعَتهُ. انْتَظَرَتُ بِتِرَدُّدٍ فَتْحَ الباب، لَكِنَّ أحَدًا لم يَفْتَحْ. أعَدْتُ الكَرَّةَ. أَحَسَسْتُ بِحَرَكَةٍ ما في الداخل، ثُمَّ فُتِحَ البابُ. إنها الخادِمَةُ، لقد ابْتَسَمَتْ لي وأَلْقَتْ عَلَيَّ التَحِيَّةَ، سَأَلْتُ عن الأستاذ. أخْبَرَتْني أنه بانتظاري، وأشارتْ إليَّ بالدُّخول. مَضَيْتُ إلى الداخِلِ مُتَجاوِزًا الرُّدْهَةَ. أخَذْتُ أُقَلِّبُ بَصَري في كُلِّ اتجاهٍ، وكَأنَّي أَبَحَثُ عَنْ شيءٍ ما في الجِوار. ارتَسَمَتْ على وَجْهي ابتِسامَةٌ عَريضَةٌ فَجْأةً.

لقد عَثَرْتُ على ضالَّتي. إنها تَقِفُ أمام المِرْآةِ الطولِيَّةِ في غُرْفَةِ الجُلوسِ، تُصَفِّفُ شَعْرَها الأشْقَر . بَدَتْ للتَّوِّ خارِجَةً من الحَمَّامِ، تَرْتَدي قَميصَ نَوْمٍ قصيرٍ مَكْشوفَ الكَتِفَيْنِ أَحْمَرَ اللَّوْن. لم تَشْعُرْ بِوُجودي. تَرَكْتُ الحُرِّيَّةَ لنفسي بِضْعَ ثوانٍ كي أسْتَرِقَ فيها النَظَر، كي أَتْرُكَ لعيْنَيَّ الفُرْصَةَ للاحْتِفاءِ بِمَشْهَدٍ ربما لن يَتَكَرَّرَ مَرَّةً أخرى.

هذا هو العامُ الثاني لي الذي أتَرَدَّدُ فيهِ على مَنْزِلِ جَدِّها من أجْلِ قِراءَةِ عَدَدٍ من الكُتِبِ لَهُ بِشَكلٍ أسبوعيٍّ، لِدواعٍ صِحِيَّةٍ تَمْنَعُهُ من مُمارَسَةِ هِوايَةِ القراءَةِ بِنَفْسِهِ، على رأسِها ضَعْفُ النَظَرِ، واستِحالَةُ الحَرَكةِ.

هذا هو العامُ الثاني لي هنا، لَكِنَّها المَرَّةُ الأولى التي أراها فيها بِهذا اللِّباسِ الخَفيفِ المُثيرِ ، لِباسٍ طاغٍ بالأُنوثة، عامِرٍ بالمُحَفِّزاتِ الجِنْسِيَّةِ. لقد كانَتْ خَريطَةُ جَسَدِها الماثِلِ في القُرْبِ أشْبَهَ بِقالَبٍ خَزَفِيٍّ مُتْقَنٍ خَرَجَ من تَنُّورٍ مُتَأَجِّجٍ بالحَرارَةِ، جِذْعُها مُنْتَصِبٌ كَمِسَلَّةٍ فِرْعَوْنِيَّةٍ، بَشْرَتُها الحِنْطِيَّةُ مُتَوَرِّدَةٌ ببَقايا سُخونَةِ المِياهِ ورَذاذِ البُخار. كَتِفاها تَشِعَّانِ فَرَحًا وكأنَّهما تَحْتَفِلانِ بتَحَرُّرِهِما من سِجْنِ القُمْصانِ والفساتينِ الرَسْمِيَّة. أما ساقاها فمُشرقَتَانِ مَصْقولَتانِ كعمودَيْ رُخامٍ لا عَيْبَ فيهِما ولا خَدْش.

نَبَّهَتْني الخادِمَةُ وهي تَنْقُرُ كَتِفي بإصْبَعِها أنَّ الأسْتاذَ بانْتِظاري في مَكْتَبه، فَأَلْقَيْتُ نَظْرَةً أخيرَةً على قَوامِها الخَلَّابِ ومن ثُمَّ أكْمَلْتُ طَريقي.

دَخَلْتُ إلى الغُرْفَةِ بِسُرْعَةٍ، فيما ارتَسَمَتْ ابْتِسامَةٌ عَريضَةٌ على وَجْهِهِ فَوْرَ رُؤْيَتي. أشَرْتُ إلى ساعِتي مُدَلِّلًا على أني قد أتَيْتُ في الوَقْتِ المُحَدَّدِ، فاقْتَرَبَ مني على الفَوْرِ بُكُرْسِيِّهِ المُتَحَرِّكِ الذي لازمَهُ منذ وَقْتٍ طَويلٍ مُرَحِّبًا بي، مُنْتَظِرًا أن أبادِلَهُ التَّرْحيب، فانْحَنَيتُ نَحْوَه و ضَمَمْتُهُ بِحَرارَة.

وقَبْلَ أنْ أرْفَعَ رأسَي عنه دَفَسَ مَبْلَغًا من المالِ في جَيْبِ قَميصِي دونَ أيَّةِ مُقَدِّماتٍ. وقَبْلَ أن أسْتَوْعِبَ ما حَصَلَ بادَرَ الأستاذُ بالقولِ أنَّ هذا هو راتِبُي الشَّهْرِيِّ. حاوَلْتُ أنْ أُبْدِيَ نَوْعًا من الاستغرابِ في العَجَلَةِ لِدَفْعِ المالِ، لَكِنَّهُ قَطَعَ عَليَّ الطَّريقَ بالإشارةِ إلى أن اليومَ هو أوَّل الشَّهْرِ، وأني كطالِبٍ يُعِدُّ لِرسالَةِ الماجستير أحْتاجُ إلى المالِ كي أَصْرِفَ على كُتُبِي، ومَلْبَسي، ومأكلي، ومشربي في الجامِعَةِ، وأُعيلَ أُمِّي وأخي الصَّغير.

لَطالَما ذَكَّرَني الأستاذُ بَحقيقَةِ واقِعي المَرير، بأنَّي شابٌّ يَتيمٌ، وَجَدَتُ نَفْسَي في السابِعَةَ عَشْرَةَ من العُمْرِ رَبًّا لأسْرَةٍ بلا مُعيل، تَسْكُنُ في أطْرافِ حَيٍّ مُعْدِمٍ في جنوبِ المدينة. لا مَلاذَ لها كي تَعَيْشِ سوى تَقَبُّلِ الصَدَقَةِ ودَعْمِ المُحْسِنين. ولولا تَفَوُّقي الدِراسي على مستوى الإقليم، لما اسْتَطْعَتُ أنْ أُكْمِلَ دِراسَتَي الجامِعِيَّةَ، وقَدْ كَفَلَ لي التَّفَوُّقُ مِنْحَةً دِراسَيَّةً مَجَّانِيَّةً على نَفَقَةِ الدَّوْلَة.

بِحَماسٍ شديدٍ سألني "أيَّ كِتابٍ اخترتَ كي تَقْرَأَ لي هذا الأسبوع"، فاتخذتُ مَكاني أمامَهُ على المقْعَدِ، وأخْرَجْتُ له من حقيبتي "طوق الحمامة" لابن حزم، فابْتَسَمَ عندما سَمِعَ العُنْوان، ورَدَّدَ ورائي اسم الكتابِ، قَبْلَ أن يَسْتَطْرِدَ قائلًا "سَمِعْتُ به منذ زمن، وَوَدِدْتُ مِرارًا أن أقرأهُ في الماضي، لكن تَبَنِّي ابن حزم للمذهب الظاهريِّ المُتَشَدِّدِ في الدين، كان دَوْمًا يَقِفُ حائِلًا بيني وبينَهُ". وهو ما مَهَّد الطَريقَ لحديثٍ جانِبيٍّ شَيِّقٍ استَطَعْتُ من خلالِهِ أن أنْفُذَ إلى صُلْبِ الكِتابِ، وأقرأَ له العَديدَ من الصَّفَحاتِ، فيما هو يَهُزُّ رَأْسَهُ مع كُلِّ سَطْرٍ، كمن يَطْرَبُ لسَماعِ أُغْنِيَةٍ لأُمِّ كلثوم.

فيما أنا أُنهي قراءتي، قاطَعَنا نَقْرٌ على بابِ الغُرفَةِ، فَتَوَقَّفْتُ عن القِراءَةِ، وما هي إلا ثوانٍ حتى كانت المفاجئة. إنها هي ! لقد أتَتْ لِتُقَدِّمَ لنا فُنْجانَيْنِ من الشاي بيديها. تَناوَلْتُ الفنجانَ عن الصينِيَّةِ والارتباكُ بادٍ في صوتي وأنا أشْكُرُها.

أثنى عليها الأستاذ والتَفَتَ إلي قائلًا " لا أدري كيفَ يُمْكِنُني أن أتَخيَّلَ حياتي بِدونِ هذه الحفيدَةِ الجميلِةِ". قال هذا وهي واقِفَةٌ إلى جانبي راسِمَةً ابتسامَةً عَريضَةً على خَدَّيْها المُتَوَرِّدَيْنِ كعُنقودَيْنِ من العِنَبْ زادَتْ من خَفَقانِ قلبي، وكأن زالزلًا مُدَمِّرًا ضَرَبَهُ. تَرَكْنا ووَقَفَتْ أمامَ المكتَبَة في زاوِيَةِ الغُرْفَة. أجالَتْ بَصَرَها في الرُّفوفِ العُلْيا، فيما أنا أَجولُ بِبَصَري بتفاصيلِ ساقَيْها البيضاوِيين في الأسْفَلِ. نَظَر الأستاذُ إليَّ، رآني أنْظُرُ إلى زاوِيَةِ المَكْتَبَةِ حيثُ تَقِفُ فابتَسَمَ، صَمَتَ قليلًا وتابعَ بأنَّهُ يَعْرِفُ بما أفكِّرُ.

دُهِشْتُ، وخَيَّمَ الوُجومُ على مُحَيَّاي، " هل حَقًّا يَعْرِفُ بما أفكر؟ هل يعلمُ أني أحِبُّ حَفيدَتَه؟ لكني فَعَلتُ المستحيلَ كي أُخْفِيَ حُبي عن الجميع وأنا أعْرِفُ تمامَ المعرِفَةِ الفارِقَ الطَبَقِيَّ الكبير بيني وبينها."، قُلْتُ هذا في نفسي وهي تَهُمُّ بالخروج والأستاذ يُكْمِلُ حديثَهُ قائِلًا" لا تَخَفْ. تَوَقَّع بأن تَسْمَع أخبارًا سارَّةً في القريب"، كَتَمْتُ فَرْحَتي بما سَمِعْتُ، ولم أَجدْ طَوقًا للنجاة من صمتي سوى "طوق الحمامة"، فَعُدتُ للحديثِ عنها من حيثُ انتهَيْنا.

ضَرَبْنا مَوْعِدًا بعد أسبوعين. خَرْجْتُ مُسْرِعًا وفي ذهني ألفُ سُؤالٍ وسؤال. بَدَأتُ بالإعدادِ للقاءِ القادم على عَجَل. انتابني شعورٌ مُفْرِطٌ بالتفاؤل حِيالَ ما قالَهُ لي. لِوهلَةٍ تَخَيَّلْتُ لحظةَ مفاتَحَة الأستاذ لحفيدَتِه بأني مُعْجبُ بها، لكني سرعان ما طَرَدْتُ هذا المَشْهَدَ من أمامي عائِدًا إلى كُتُبي وأوراقي.

كما هو المعتاد، كُنْتُ في المَوْعِدِ المُحَدَّدِ. وَقَفْتُ أمامَ الباب. قَرَعْتُ الجَرْس. تَأَكَّدْتُ من أنَّ رَبْطَةَ العُنُقِ في مَكانِها، وانتظرْتُ. فُتِحَ البابُ سريعًا، إنها الخادِمة. كان لباسُها يَتَّشِحُ بالسوادِ المُفْرِط هذه المرة، دَعَتْني للدخولِ، لم تَقدْني إلى غُرْفَةِ المكتبِ، ولكِنَّها طَلَبَتْ مني الجُلوسَ في غُرْفَةِ الصالون. لم أكْتَرِثْ كثيرًا بما حَدَث، إلا أنَّ شيئًا ما في هدوءِ المكان كان يَبْعثُ فِيَّ قَلَقًا لا مُبَرِّرَ له، وذلك حتى فُتِحَ الباب، ودَخَلْتْ إلى الغُرْفَة. إنها هي، لقد أتتْ للقائي، ولم يَكُنْ هو ! بَدَأَتْ مساحَةُ القَلَقِ تَتَّسعُ في داخلي، خاصَّةً وأنَّها تَرْتدي ثيابًا سوداء هي الأخرى !

جَلَست بالقُرْبِ مني، ولم تَكَدْ تَنْظُرُ إليَّ حتى اغَرَوْرَقَتْ عيناها بالدُّموع، ثم أجْهَشَتْ بالبُكاء. عندها أدركْتُ أن شيئًا قد ألَمَّ بالأستاذ، فقاومت ذُهولي وسألْتُها مُسْتَوضِحًا، لأُدْرِكَ حينها أنه قد تُوُفِّيَ، تُوُفِّيَ بعدَ يومٍ واحدٍ من جَلْسَتِنا الأخيرة. لِلَحظَةٍ ظَنَنْتُني أُصِبْتُ بالخَرَس، لم أقْوَ على الكلام، وكأنَّ لساني قِطْعَةُ حَجَرٍ، والكلماتُ جَفَّتْ في حَلْقي.

ظَلَّ الصَمْتُ سَيِّدَ المكان لثوانٍ، لم أخرجُ إلا على وَقْعِ كلماتها وهي تحاول أن تَشَرَحَ مُلابَساتِ الفاجِعَة، وحَيْثِيَّاتِ الوفاة. مَضَتْ خَمْسُ دقائق وهي تَسْرُدُ التفاصيل بِجُزْئياتها المتناهية في الصِغَر، بَدَتْ وكأنها تُفْرِغُ شُحْنَةً من الأحزانِ وَجَدَتَ ضَوْءًا لها في آخِرِ النَفَق. أبْدَيْتُ مُواساتي لها، ولم أشَأ أن أُطيلَ البقاءَ في هذه الظروف أكثر. حاولتُ الاستئذان، مَنَعْتني، قالت أن لديها ما يُهِمُّني. أنْصَتُّ لها.

"لقد فاتَحَني جَدِّي يَوْمَ زِيارَتِكَ الأخيرة بموضوعٍ مُهِمٍّ للغاية، وللحقيقة تَرَدَّدْتُ بِمُفاتَحَتِهِ مَعَكَ اليوم" قالتْ هذا، والحَرَجُ ماثلٌ في وجهي وعينيَّ. حاولتُ إخفاءَهُ وتأجيلَ الحَديثِ في الموضوع إلى وَقْتٍ آخَرَ، وهَمَمْتُ بالخروج، إلا أنها أصرَّتْ على المُضِيِّ في حديثها، ولم يَكُن مني إلا الاستجابة لها، فُعُدْتُ إلى حيثُ كُنْتُ، وأنا أنتظرُ أن تَقْذِفَ قُنْبُلَةً في وجهي، عن مشاعري نحوها، وحُبّي لها، أو أَقَلُّهُ تلك النظراتِ إلى جَسَدِها التي كُنْتُ أسترقها كلما صادَفْتُها في زياراتي.

"المكتبة" قالت هذه الكلمة ثم صَمَتَتْ، فاسْتَطْرَدْتُ مُسْتَوْضِحًا عن معنى قَوْلِها، فأكْمَلَتْ قائلةً " لقد أوصى لك جَدَّي بالمكتبة بعدَ وفاته، فهو يَعْرَفْ قيمَة الكُتُبِ لديك". بَقِيْتُ صامتًا للحَظة مُحاولًا فَهْمَ ما يَحْدُثُ، عندَها أدْرَكْتُ تمامًا ما حَصَل، وهو أن الأستاذَ في زيارتي الأخيرة لَه عندما رآني أنظرُ باتجاه حفيدتِهِ ظَنَّ أني كنتُ أتأمَّلُ المكتبة بِشَغَف. يا للعجوزِ المِسْكينِ ضَعيفِ النَّظر !

وَجَدْتُني أرْسُمُ بلا وَعْيٍ ابتسامَةً خفيفةً على شَفَتيَّ، وأقولُ لها دونَ أن أُشْعِرَها بالخطأ الرومانسي الذي وَقَعَ فيه جَدُّها بأني سعيدٌ جِدًّا بأن أحْتَفِظَ بمَكْتَبَتِهِ لديَّ. كَرَّرْتُ لها عباراتِ حُزْني على مُصابِها الأليم، وطَلَبْتُ منها السَّماحَ لي بالانصراف.

في الخارجِ وقَفْتُ وأنا أُعيدُ شريطَ ما حَدَثَ، وأفَكِّرُ في اللَّحظاتِ التي اسْتَغْرَقْتُها في التحضير لما سوف أقولُ لها عن حقيقةِ مَشاعري، فيما الحقيقة هي أنها لم تُكُنْ

تَعْرِفُ شَيْئًا عَمّا أريدُ منها. عندَها اسْتَدَرْتُ نحو الشارعِ، وَمَشَيْتُ عائِدًا إلى الحَيِّ القديم.

نوبة هستيريا .. رحمة خطار .. الجزائر

على سرير كآبتي المعتادة؛ كنتُ أرقد بين جدران المشفى البيضاء!

يقولون بأن اللّون الأبيض يساعد على تصفية ذهن المريض وتفتُّح نفسيته، وتعزيز أمله في الشّفاء، لكنّه يوتِّرني؛ يذكِرني بالموت والكفن، بأبي الذي كان ملفوفًا باللّون الأبيض، ولم أستطع الاقتراب منه لأقبّل جبينه، فألقى عليّ الجميع يومها وابلًا من اللّوم، رغم أنّي كنت أريد أن أقترب من جثّته و أبكي حتّى يجف دمعي؛ لكني لم أستطع!

أنا هنا منذ شهرٍ تقريبًا؛ منذ أن أصبتُ بانهيار عصبي كان قد أنهار قبله كياني الروحي. عادةً ما يشعر المرء بالوِحدة في مرحلة متأخِّرة من عمره في فترة الشّيخوخة، ربما حين يكبُر أبناؤه ويتفرّقون عنه تاركين إياه وحيدًا فيبقى في انتظار سلطان الموت بحكم تقدُّم السن.

لكن هذه المرحلة باغتتني على غفلة، وأنا في سنّ الزهور النّضرة، ما بين ليلةٍ وضحاها أُحلتُ إلى مقاعد الوحدة الشّاغرة.

أدعى "أمل" ولكن لم يعد لي أمل في الحياة. تُوفيتْ أمي عندما كنتُ طفلةً؛ لا أذكر من ملامحها شيئًا، أما أبي فقد رَحَلَ منذ ثلاث سنوات؛ كنت حينها في الثالثة والعشرين من عمري. أمّا فقيدي الثّالث فلا يزال حيّاً يُرزق؛ إنّه آدم!

كان آدم شابًا من خيرة أبناء مدينتي، ومثالًا حيّاً للأخلاق والتديّن. في ذلك الوقت كنت أرتاد مدرسة قرآنيّة للبنات، حين دلَّتني على محلّه إحدى قريباته؛ اذ احتجت لاقتناء بعض الكتب و المراجع. وقد أخبرتني بأنّ ذلك الشاب يدرس تخصص العلوم الاسلامية، وله ثقافة واسعة في الفقه. بعد أن قصدته أعطاني رقمه بغرض الاتصال عند الحاجة، فغالبًا ما كنت أتردَّد على المحل وأجده مغلقًا!

لا أدري كيف حدث ذلك، لكن مع مرور الوقت تطوَّر الأمر إلى مكالمات هاتفيّة، حيث كان يختم كلّ محادثة هاتفيّة بيننا بقوله: أنه نادم، وأن هذا التعلُّق؛ أمر هادم! بما أنّه يشعر بتأنيب الضّمير فهذا غير جائز. ورأيي لم يكن مختلفًا عمّا يراه!

أخبرني بأن الحب قد تمكَّن منه، وأرداه قتيل الهوى، كما أطلعته أنا كذلك على مكنون قلبي و ما أحمله له من ودّ خالص. كنت في سنتي الأخيرة في الجامعة حينها، وأخبرني بأنّه سيتقدَّم لخطبتي رسميّاً، فور انتهاء الموسم الدراسي. غمرتني أمواج

البهجة إلا أن كلامه القائل: بأنّي سأمكث في البيت بعدها! انتشلني من بينها. عارضته قائلة:

– لا، هذا ما لن يحدث أبدًا؛ ماذا عن مستقبلي وطموحي؟

كنت أرى نفسي دومًا مربية أجيال ناجحة كمدرِّسة، لكنّي كتمتُ حلمي وألمي بعد طلبه ذاك! المشكلة أنّه لم يمنحني مُهْلة لأفكّر قط؛ لربّما كنتُ سأتخلّى عن طموحي، اذ أنّني بعد فترة وجيزة سمعتُ بأنه تزوّج!

نعم ... زواج مباشرة بعد خطبة سريعة وعقد قران!

لم أعي في أي هوة سحيقة أنا بعد أن أنبأتني ابنة عمي بالخبر. منذ ذلك الحين و أنا غارقة في شطآن هذه الجدران المصبوغة بالكآبة المقرفة، وهذا السرير الأبيض المريض، حتى المئزر الأبيض... أبيض! أبيض كلّه يشبه الموت، وأنا أضحك. يقولون بأنّي قد جُننت و لم أعد واعية!

يمنعون الصِّغار من الاقتراب مني وكأنّي شبح مذموم! ولكنّي قلب مصدوم؛ يرزح تحت وطأة الحزن المكتوم.

في أمسية ذلك اليوم؛ كنتُ في رواق المشفى، بصحبة الممرِّضة أثناء عودتي من جولتي المسائيّة إلى غرفتي؛ و اذ بي ألمحُ طيفًا مألوفًا، وأُميِّز وجهًا معروفًا...

– نعم! إنه هو...

صرختُ باسمه في هستيريا: آدم... آدم ...؟!

نظر إليّ بارتباك بعد أن لمحني؛ سارعتُ إليه الخطى، مددتُ يدي نحوه ودموعي تتهاطل:

– آدم... أنا أمل حبيبتك؟

زَفَرَ بحنق كالتنين، وأبعدني عنه بقوَّةٍ، حتى أقْبَلِتْ امرأة منقِّبة بصحبة طفلها؛ سارعَتْ في مشيتها عندما وجدتنا معًا في الرواق! كانت تعدو كفرس أحسَّت بالخطر الذي يحوم حول ذَكَرِها؛ فدفعتني عنه بعصبيَّة قائلة:

– أيتها المج... ابتعدي عن زوجي؟

لقد ابتَلَعَتْ نصف الكلمة قبل أن تنعتني بالمجنونة؛ بدا كما لو أنّها تذكّرتْ أنّ ابنها هو الآخر مصاب بالتوحُّد، ويعالجُ في نفس المشفى!

نظرتُ إلى الصغير الذي وقف خلف أمه ممسكًا بطرف حجابها؛ يبدو في الرابعة من العمر تقريبًا... لحظة! كم مرّ من الزّمن؟ هذا يعني أنّ آدم تزوّج منذ سنوات! ألقيتُ نظرةً متفحِّصة للمكان والوجوه من حولي...

منذ متى وأنا هنا؟ لا أستطيع أن أتذكّر أو أفكّر في أي شيء! تتصارع الأفكار في رأسي، وأهوي أرضًا على حين غرّة، وأمسكُ برأسي بكلتا يديّ وأصرخ.

شعرتُ بأياد تطوّق ذراعيّ؛ رفعتُ بصري فالتَقَتْ عيناي بابتسامة آدم الساخرة: لا ليس هو... ذلك الوجه يبدو بصورة أوضح الآن! إنه ممرِّض! شعرتُ بوخزة تُغرَز في ذراعي الأيسر، فأدركتُ فورًا أنها الحقنة المُهدِّئة!

فتحتُ عينيّ فجرًا، وأنا مُمَدَّدة على السرير؛ كانت الحمّى تستعر في بدني حينها و لم أدرِ كم مرَّ عليّ من الوقت؛ انتفضتُ من فراشي وقمتُ واقفة بساقين مرتجفتين! لم أبصر أي شيء من حولي سوى تلك الحقنة التي كانت تلمع على المنضدة بجانبي؛ ابتسمتُ بسذاجة:

يبدو أن الممرِّضة قد نستها هذه المرة؛ لطالما تمنيتُ حدوث هذا... لطالما بحثتُ عنها كي أغرزها في رقبتي، أو في معصمي مثلما أفكِّرُ في فعل ذلك الآن.

عودة ثم غياب .. رضوى اسماعيل .. مصر

بدا أشبه بطفلٍ حائرٍ تاه بعيدًا عن والدته ولا يدري ما العمل! يتلفَّت يمنة ويسرة، فإذ بالعالم قد تغيّر، يقرِّر أن يذهب إلى قهوة المُعَلِّم حنفي؛ حيث اِعتاد أن يشرب قهوته وشيشته التي تضبِط مزاجه، وما يحافظ على هذا المزاج ويرسِّخه؛ هو مشاهدة المارة من الجنس الناعم، وهن يرُحن ويجئن في اتّجاه السوق.

وجد ناصية الشارع أخيرًا؛ نظر إليها باشتياقٍ من بعيد، انطَلَقَ نحو القهوة مهرولًا؛ فإذ بمتجرٍ للملابس يحتل مكانها، نَظَرَ إليه بدهشةٍ وبلاهةٍ ثم دخل، استقبله العامل بابتسامة خرقاء مصطنعة وهو يقول:

– أهلا وسهلا، لدينا كل الأذواق وكل المقاسات، كيف لي أن أساعدك؟

– أي... أين القهوة؟

– تريد فنجانًا من القهوة؟ سيكون جاهزًا خلال خمس دقائق، تفضَّل بمشاهدة بضائعنا؛ أفضل الخامات وأرخص الأسعار.

– غبي.. أخرق، أين المعلّم؟ أين القهوة؟ يا معلم حنفي!

خَرَجَ من متجر الملابس خانقًا هائمًا، ثم قرَّر أن يكمل الطريق في اتّجاه "زكيّة" تلك الفتاة التي لطالما تمنّته زوجًا، ولطالما تمنّاها عشيقة. اِقْتَرَبَ أخيرًا من المنزل ونظر إليه بشوق ولهفة، فإذ بكرش يتدلّى من النافذة، وخلف هذا الكرش يقبع جسد رجل يعلوه رأس كثيف الشّعْر، يبدو أنّها قد تزوَّجَتْ: ولكن ألم تجد من هو أفضل من هذا الخرتيت!؟

بحث في ذاكراته عن وجهة يقصدها، كان يأمل أن يجد "سلطان الدهشوري" قريبًا، فيفسِّر له كل ما يحدث، لم يكن سلطان مجرد صديق، بل هو الرفيق الأوحد في جميع ملذّات الحياة، ظل يفكر أين يمكن أن يجده، فقاده تفكيره ومن ثمّ قدماه إلى شقَّة المعلّم عبده التي تقع في الدور الأول، وأسفلها مباشرة تكمن غرزة تحوي أفخم أنواع الحشيش والمخدرات متخفيّة في هيئة بدروم، أذهلته المفاجأة عندما لم يستطع إيجاد المنزل! ولكنه ظل يبحث في قلق حتى نفد صَبْره، حاول أن يسأل المارة عن المعلّم عبده أو عن منزله ولكن لا مجيب، رأى شحاذً يظهر عليه البؤس والشيب، فقال له:

– أتعرف بيت المعلّم عبده؟

– عبده؟ هههه! وماذا تريد من المعلّم عبده؟

– هذا ليس شأنك، أخبرني بمكان البيت إن كنت تعرفه، وستقبض الثمن؟

– هههههه الثمن منك أنت، لا يبدو عليك أن في جيبك هذا الثمن الذي تتحدَّث عنه.

– ولكن في قبضتي القوة الكافية لكي أوسعك ضربًا.

– اِهدأ، أنا لا أعرف شيئًا صدقني، كل ما أعرفه أن البيت قد هُدِم منذ زمن.

نَظَرَ إلى الشحَّاذ بازدراء، ثم سار في الشارع دون وجهة أو هدف، قادته قدماه إلى مقابر لم يرها من قبل أو يلحظ وجودها، نظر إليها في تعجّب ثم قرَّر أن يتمشَّى داخلها كنوعٍ من التغيير، نظر إلى الاسم المدوَّن على المقبرة الأولى؛ فوجده اسم المُعلِّم حنفي، ونظر إلى الثانية فوجدها تحمل اسم زكية، ونظر إلى الثالثة فوجدها تحمل اسم سلطان الدهشوري رفيق الكفاح، ونظر إلى الرابعة فوجدها تحمل اسم المُعلِّم عبده، شَعَرَ بصداع شديد يكاد يلتهم رأسه، قرَّر ألا يُمعن في السير، نَظَرَ إلى مدافن رفقائه في حيرة، ثم قرّر أن مكانه كان وسيكون بينهم! اتّخذ لنفسه مكانًا على الأرض لينام عليه؛ فَرَدَ ظهره على الأرض في الوسط تمامًا بين رفقائه.

تفاجأ وزاغتْ عيناه عندما هَجَمَ عليه أناس بملابس يكسوها البياض؛ حاوَلَ أن يقاومهم ولكن دون جدوى، أخذوه مكبَّل الأيدي، وأعادوه مرة أخرى إلى مستشفى الأمراض النفسيّة والعصبيّة، بعد أن وجدوه نائمًا في المقابر للمرة العاشرة!

رقاص أنفال .. حكاية صبيّة .. الجزائر

يحكى أن صغيرة لم تتجاوز العشر سنوات؛ كانت تلهو بحبلها الملوَّن وصحيباتها.

تحب الحلوى والدمى والجري خلف الفراشات حديثة التخلُّص من الشرنقة.

تقطن بكوخ خشبي دافئ، له باب ذو صرير يحكي القصص ويروي الأساطير. تخرج صُبحًا لتسابق أشعة الشمس، وبيدها قطعة خبز ساخنة، وقُبلة بوجنتيها الظريفتين.

تعيش برائتها النزيهة بكل ولودية وصِغَر.

تفتح جفنيها فجرًا على رائحة الخبز الأسمر، ثم تقفز من فوق سريرها ركضًا؛ تبلِّل ذاك الوجه الملائكي الباسم، تُسرِّح خصلات شعرها ضفائرًا فردوسية، تزيِّنها بشرائط ملوَّنة كألوان قوس قزح؛ البارز بعد غيث سقىٰ بتلة بيلسانها الصغيرة.

تحمل عروستها التي تحلم أن تلبس فستانا كفستانها يومًا، و تهرول نحو أمها لتطعمها مايسكت عصافير بطنها الصاخبة من زيت و زعتر و زيتون باحتهم الخلفي، وعصير برتقال طازج؛ عُصِر بيدين هرمتين تغطيهما التجاعيد، والعروق الهدالية النضيرة.

تهرب نحو هذا الباب لتلقي السلام على نسائم ريح تعزز بها هواء رئتيها، أرجوحتها المتينة بمقعد أحمر يلائم حجمها الصغير؛ تُدَحْرِج نفسها هنا وهناك، وأصابع قدميها

العارية تغازل العشب الندي؛ تحاور الحسون فيلقي على مسامعها الغابة الملكيّة المحيطة بها، ويبلغها سلام الجنيّة الساحرة.

دوي مفزع لا تدري أين مكانه! يجعل فؤادها الرقيق يرتعش. رفرفات العصافير وأقدام السناجب تخدش الفروع مسرعة، غيمة سوداوية أقدمَتْ وكأنها تستعد لترثي الأرض حدادًا. ماهي الا ثوان معدودة –و قد كانت كافية– لتلبس الغابة حلة مظلمة، وكأنها تخبرنا بحال الكفيف الضرير.

خشخشات أقدام مزعجة غير متناسقة، وهمسات تعالتْ بحروف مُطلسَمة، لم تذرح الصبية مكانها، تعانق حبال أرجوحتها، وتغرز أصابعها خوفًا في بطن دميتها الرهينة! وكأن الموجة الضبابيّة لم تكن كافية ليليها صيب صبّ خيطًا لا ينقطع من سماء لم تكن رحيمة في سقياها؛ تهاطلتْ أوراق الغصون الربيعيّة بنيّة جافة؛ تاركة عُرْي وراءها يجعل الاشجار ترتجف!

أربع دقائق فقط؛ كانت كفيلة لتتعاقب فصول أربع وتنجلي، وكأنها لم تكن!

فتحَتْ صغيرتي عينيها؛ بيدها مفتاح نحاسي؛ لا تدري لأي باب! عروستها قد سقطتْ في بركة طينيّة؛ غَطَّتْ ضحكتها المُبهجة.

ملامح مبهمة تعلو وجهها حسرة دهشة فضول قاتل، وغموض يتبعه خوف. تختلج كلماتها الفارَّة تبحث عن أمها وبيتها، وعن بسمتها المختبئة.

تركض بين حنايا الغابة، وكأنها حُطّت بها حديثًا متاهة؛ لا تعي أين مدخلها وإن كان لها مخرج! تركض الصبيّة بقدميها العاريتين؛ تتسابق رجلها اليمنى و اليسرى بخطوات متسارعة غير مُتَّزِنة، تلوِّح بيديها بحركات عشوائية تحمي بها نقطة مرآها. مستذئب يستحم في بركة دماء متلذِّذًا بها، وقِرَدة تلطم بعضها بعضًا؛ لم ترحم بني جنسها.

وهناك في القريب البعيد سَرْب لقالق؛ يرمي بفُتات خبز لخرفان عارية!

عيون بحواجب شقراء؛ تتّبِعها حاقدةً، وضحكات مسفرة تعالتْ...

لازالت الصبيّة تركض بقدميها العاريتين؛ تصارِع هواجس مستهجنة تحاول بتر إرادتها و دفن اجزائها الحية. أجساد و أجنّة عارية بخيوط تحركها عرائس "ڤراڤوزية"... أصنام ملوَّنة منوَّعة تتنحّى لأقواها على أبواب مقابر صامتة.

و لازالت الصبية تركض بقدميها العاريتين؛ نحو شروق ضوء يناديها: هاهنا مبتغاك، وشربة ماء لحلقكِ، ومشبك لضفيرتكِ المتعثكلة.

تدير المفتاح في ثقب باب مزخرف بعبارات شامخة:

"لن تنحني الدول العربية"

هاهي صبيَّتي الباسمة تطحن الحناء لقدميها المتورمتين.

البحث عن زوج على الإنترنت .. عائشة بناني .. المغرب

كلما أشرَقَتْ شمس الصباح؛ تتطلَّع لسقف الغرفة في سريرها الدافئ؛ تُحمْلِق في زاوية محددة قد تتغيّر من صباح لآخر. تحملِق في لا شيء،وتتذكَّر لا شيء، تترنَّح بين اليقظة والكسل في النهوض، يستنفر الضوء المنبعث من النافذة حواسها، تمسك هاتفها؛ تنقر بضع نقرات، وتنتظر...

من الأفضل أن تكون هادئة وواثقة، إن كانت تبحث عن زوج على حصان أزرق، لم يعد الأمر يتطلَّب أن تحضر حفلة ما، أو تتسكَّع في الشوارع بكامل أناقتها؛ يكفي أن تنشر بعض الصور على صفحتها في "الفيسبوك" وإن كانت صورًا لا تخصُّها؛ المهم أن تكون مغرية ليتقاطر عليها الذكور.

كما أنه أصبح لديها إمكانية اختيار زوج لها من بلدان أخرى، وهذا يعني أن هناك مساحة أكبر لها على الخريطة لإيجاد زوج، ومع ذلك ما زالت لم تحظَ بفرصتها.

تراهن على أن تقبل صداقة أحدهم أو تُرسل طلبًا إليه، وتنتظر أن يبادر بالحديث؛ وإن لم يفعل ستعلِّق على إحدى منشوراته، وإن بدا لها تافهًا؛ لايهم، ستستعمل الكلمات السحرية: روعة، ممتاز، أحسنت، واووووو.

بعدها سيسرع لإرسال رسالة شكر وامتنان؛ لأنه سيظن أنه اصطادها بسهولة ولا يدري أنها أيضًا صياد! تتحيَّن الفرصة لتُدخله قفص الزوجيّة؛ ليقوم بتلقيحها، فقد جاوزتْ الثلاثين من عمرها وتريد أن تصبح أمًا.

ويبدأ الصراع بينها وبينه؛ تحاول أن تجرَّه إلى قفص الزواج، ويحاول أن يتهرَّب منه. منذ مدة وهي تنتقل كنحلة شغّالة بين هذا وذاك.

هل سيكون يومًا آخر لها حافلًا باليأس، يومًا آخر من الإحباط في إيجاد ذَكَر بالغ؛ تستطيع عن طريقه إنقاذ ما تبقّى من بويضات في رحمها. لم تعد تستطيع الصمت ولا تحجيم الواقع، وإن كانت الحقيقة مؤلمة وموجعة، إلا أن الاعتراف بها تظنه يدخل ضمن الأخلاق العامة، وستترك لعقلها الخلّاق أن يصنِّفها.

مسكَتْ الهاتف مرة أخرى؛ تعبث بأزراره وتنتظر...

اختفى شبح الكلمات في ذهنها حين وصلتها إشارة لوصول رسالة، تأفَّفَتْ حين وجدتها من صديق، اعتاد أن يذكِّرها بأذكار الصباح: ليته يعلم حاجتها لزوج الآن أكثر من أذكاره! يجعلها ضمن عاداته اليوميّة كل صباح ومساء؛ يبعث باقة ورد تليها الأذكار قبل أن ينصرف إلى عمله.

سألته في إحدى المرَّات إن كان يذكِّر بها زوجته أيضًا؟ أرسل لها أيقونة ابتسامة وأضاف: "زوجتي منشغلة بطفلنا الرضيع، أنت تستحقين الورود أكثر منها لأنك وردة."

سألته: "وهي أليست وردة؟"

أجابها: "كانت... أما الآن فهي أشبه ببقرة... " وخَتَمَ حديثه بأنه مضطر لإنهاء الحوار حتى ينهي قراءة سورة (البقرة) قبل انصرافه إلى العمل.

قرّرتْ أن تكون اليوم أكثر شجاعة، بل ومحاربة أيضًا من أجل الحصول على مسعاها. الحق يُنتزع ولا يعطى؛ ستشحن عقلها ببعض الأقوال والحِكَم للعظماء عبر التاريخ وتنطلق في مسعاها اليومي: إيجاد زوج بأقصى سرعة ممكنة عن طريق الانترنت.

هي تعلم أن أغلب المتصلين على "الماسنجر" يبحثون عن التسلية؛ لذا تحترم أحدهم إن لزم الصمت، لأن أفضل ما سيجود به خلال المناقشة، أشياء غبيّة، فكانت تقدِّر أكثر سكوته.

وهكذا كانتْ علاقتها بجلال؛ بادرته بالسلام حين وجدتْ منشوراته عن المرأة،واحترامه لها، ووجوب التعامل معها ككائن رقيق وشفاف! حتى وإن لم تكن المنشورات له؛ ويعتمد في أغلبها على النسخ واللصق، لكنها حتمًا تعبِّر عن جانب من شخصيته.

لذا لم تحسّ أبدًا بالخجل حين بادرته بالحديث؛ فالصيد ثمين، لن تحصل على أب لأطفالها فقط، وان كان هدفها الرئيسي، قبل أن تقتلها الحسرة وهي تنزف كل شهر كمدًا وحرقة كلما ودَّعَت بويضة لها. تعلم أنها كلما ماتت إحداها لن تعوَّض أبدًا، وأنها على وشك أن تنهي رصيدها منها، وسيكون غير قابل للشحن. مع جلال ستحصل ربما على زوج لها أيضا بجانب أب محتمل.

كانت رسائله مقتضبة، ومع ذلك استطاعتْ أن تستنتج أن وجود المرأة في حياته مرتبط بخدمة الرجل، والسهر على راحته، لهذا خُلِقَتْ. تلك مهمتها في الحياة الدنيويّة والأخرويّة أيضًا ،وإلا ما معنى أن يكافأ بها الرجل إن عمل صالحًا، ودخل الجنّة، فيختار من الحور العين ما يشاء؟

لم تحاول أن تصحِّح له مفاهيمه؛ لأن الفكرة كانت لها جذور، أسيرة قيود أَحكَمَ البعض من الجنسين معًا في ترسيخها، وهي غير مستعدّة للخوض في نقاش؛ أُسيل حوله الكثير من المداد وما زال.

تعلم جيِّدًا بحكم خبرتها؛ أن الرجل وإن كان يعجب بالمرأة الذكية غالبًا فهو لا يرغب في الزواج منها! وقد قرَّرت من اليوم أن تُكَفِّن دماغها بكفن غباء؛ لتستطيع الزواج والإنجاب في إطار شرعي؛ لذا فَكَرَت أن تغض الطرف عن أي نوع من السوداوية الذكورية في حديثه، ستجازف وتقبل به؛ فكم من المؤامرات تحاك ليلًا، وهي سيكون لها معه الكثير من الليالي تستغل فيها حماقات ذكائها للعيش معه. لا يهم؛ لا تريد أن تفكِّر في العواقب؛ لقد ألغَتْ تفكيرها منذ أن قرَّرت البحث عن زوج في الإنترنا. لن تركِّز إلا على الهدف، لن تتفاجأ أو يصيبها الذهول من أفكار بعض الرجال، لأن الوقت لم يعد لصالحها لرفاهية الدخول في حوارات ومشادَّات معهم.

لكن جلال لزم الصمت بعد تواصل باهت، واضمحلَّتْ الرسائل بينهما كأبواب سريّة تُرِكَتْ للصدأ. وما زالت تنظر لسقف غرفتها كل صباح وتحلم بنصفها الآخر، وتتساءل: لماذا لم يجدا بعضهما حتى الآن؟

ألم يقل "جلال الدين الرومي": "من تبحث عنه يبحث عنك، ربما على أحدهما أن يتوقف حتى يجده الآخر..."

وهي تنظر للسقف في هذا الصباح وتعض وسادتها، كانت تلحّ على نصفها الغائب الحاضر أن يتوقَّف في البحث عنها؛ لعلها تجده، فقد أضحى البحث عنه من طقوسها اليومية التي لا تستغني عنها. أصبح هدفها البحث عن زوج أكثر من العثور عليه!

الصباح الموالي بدا مختلفًا لها هذه المرَّة؛ الشمس كانت تطل بكل ثقة لتشعل الأرض ببطء مريح، وكأنها تمنح لنفسها إذنًا لأن تلتقي ووحدتها في هذا الفضاء الأزرق بكل شجاعة، حتى نقراتها على الهاتف بدتْ غير عادية؛ تتخلّلها موسيقى متناغمة لم تكن لتنتبه إليها من قبل. نقر بأصابعها وتتبعها بدندنة لأغنية لفيروز" إيه فيه أمل".

تركيزها على إيجاد زوج ملأ فراغات حياتها، هذه العادة والطقوس اليوميّة في البحث عنه؛ تعد أملًا وإن كان بائسًا، إلا أنه يستطيع التحكم في مجريات يومها الممل، ويمدها بابتسامة مسروقة من خلف حائط انتظارها الحجري.

الإنسان يظل يبحث عن معنى لوجوده، ومعنى وجودها؛ أن تجد نصفها مهما بدَتْ المهمة صعبة كلما توالت السنوات. تضيق مساحة فرصتها في إيجاده، ومع ذلك

ستكون كطائر الفينق وتُبعَث من الرماد من جديد؛ لن تيأس وإن تكسَّر قلبها مرّات عدة في هذا الفضاء؛ لن تهتم، ربما كان من الأفضل كسره، لتنسكب منه المشاعر التي ظلَّت مختفية في الزوايا الميتة، لتعيش حياة جديدة بأمل جديد.

ما زال لديها فائض من العمر تعيشه، لن تجعل هاجس تلك البويضات اللعينة يضفي غيومًا إضافية على وجودها ستفطم نفسها من التفكير بها... هاتفها يرسل مرة اخرى إشارة وصول رسالة، فتحته بكل ثقة، قرأت الرسالة وأعادت قراءتها مرَّات عدة؛ غير مصدِّقة قبل أن تجيب عليها:

– "نعم أنا هي... (أيقونة وجه مرتبك) هل من المعقول أن تكون أنت!؟ ما الذي ذكَّرك بي؟ (أيقونة اخرى لوجه يفكِّر) كيف توصَّلتَ إلى حسابي؟ ثم كيف ما زلت تتذكَّرني من أيام الجامعة!؟"

ضغطت زر الإرسال، وهي تدعو ألا ينقطع بغتة قبل أن تتأكَّد أنه هو نفسه سامي من أيام الجامعة! وفيما كان هو منشغل بكتابة ردِّه، سارعتْ لتصفّح حسابه، وبالضبط إلى خانة المعلومات الشخصية، وأرسلتْ تنهيدة مسموعة حين طالعتها حالته الشخصية: "أعزب". عادت لعلبة الرسائل تتفحَّص رسالته:

– "أتدرين؟ لقد تردَّدتُ كثيرًا قبل أن أتجرأ على مراسلتكِ، أتابع من مدة منشوراتكِ بصمت... تعلمين كم كنت أعزُّكِ أيام الجامعة، مع أنكِ لم تمنحينني الفرصة قط

لأعبر لكِ عن مشاعري؛ لا أعلم الآن ظروفكِ الحالية إن كنتِ متزوجة أم لا! (ليقونة وجه حزين).

تهلّل وجهها بابتسامة مريحة، وأرسلت له:

– "ما زلتُ أنتظر نصيبي... انشغلتُ بالدراسة والحصول على عمل ووو..."

الحصاد .. فاطنة الباي .. الجزائر

"ربنا معك وينجَّحك ويوقف لك أولاد الحلال يامحمود يا ابني"

دعواتها المعهودة التي حَرَصَتْ أن تودِّع بها ابنها آخر العنقود كل صباح وهو ذاهب للجامعة؛ لتجد زوجها قد أتمّ إفطاره ويستعد للخروج ككل يوم منذ أن تقاعد من عمله. سألته مبتسمة وهي تُعدل ياقة قميصه: كالمعتاد يا أبو محمد إذن؟

– وماذا غير ذلك يا أم محمد؟ أجلسُ في القهوة، وربما أعرجُ على مركز البريد لأستفسر عن معاش هذا الشهر الذي تأخَّر.

أومأت برأسها، لتودِّعه عند باب البيت وهي تقول: ربي يوفقك ويريح بالك يا أبو محمد... رافقتك السلامة.

– اللهم آمين.

رد على دعواتها. لقد أصبحا يعرفان مايكدِّر حياتهما بعد أن أصبح البيت خاليًا من صخب الأولاد؛ ضحكاتهم وشجارهم. البنات تزوَّجنْ والأولاد منهم من تزوَّج واستقلّ بسكنٍ خاص، وهناك من في ديار الغربة للدراسة؛ لم يتبقَّ إلا محمود الذي سينهي

دراسته الجامعيّة، وحلمه أن يدرس في جامعات أوربا، يتَّبع خُطى أخوه محمد الذي رَفَضَ الزواج بحجَّة الدراسة؛ رغم إلحاح والديه.

ربّت على كتفها وقال: لاتقلقي؛ لله الأمر من قبل ومن بعد.

لتعقِّب على كلامه:

– ونعم بالله... رافقتك السلامة.

ودَّعَته ودَخَلَتْ المطبخ ككل يوم، والذي تعتبره مملكتها الصغيرة وتجد فيه متنفَّسًا لِما يقلقها، حيث بدأت في إعداد طعام الغداء، وشغَّلَتْ المذياع على قناة القرأن الكريم، واحسَّتْ بالسكون والطمأنينة بمجرد سماعها لآيات من القرآن الحكيم.

المذياع يسمعها للأخبار اليوميّة عبر نشرات الأخبار، وهي دؤوبة على التقاط الأخبار المحليّة والعالميّة وما أكثرها، وتعوَّدَتْ أن تنصت لكل خبر يخص الحراك الشعبي في البلد؛ لتنقله لجاراتها كما يفعلنْ.

أم محمد مُناها أن يمد الله في عمرها لتزوِّج ابنها البكر محمد، بعد أن زوَّجَتْ ابنها الأوسط منذ سنة. وتعتبر أن من أولوياتها أن تبحث له عن عروس تليق به.

وبينما هي سارحة بعقلها، مشغولة في إعداد الطعام ليدخل أبو محمد ويقطع حبل أفكارها:

– السلام عليكِ يا أم محمد؟

لتفزع على صوته:

– من! أبو محمد، وعليك السلام؛ أفزعتني يارجل! لو كنت تنَحْنَحتْ قليلًا... لكن لِمَ عدتَ باكرًا؟ على غير عادتك... ولماذا وجهك مهمومًا هكذا؟

مشى إلى غرفته وهو يقول: تعبتُ قليلًا، فأردتُ أن أستريح.

لكن لم يغب عليها حالته، فلحقته إلى الغرفة، فوجدته أقام للصلاة بعد أن بدَّل ملابسه. فجَلَسَتْ على طرف السرير ريثما يفرغ من صلاته. وما إن رفَعَ سجَّادة الصلاة حتى بادرته:

– ما الأمر يا أبا محمد؟ لاتقل لاشيئ؟ صرتُ أعرفك عندما يشغلك أمر ما!

وَضَعَ السجَّادة على الأريكة ليجيبها:

– أنتِ تعلمين أني ذاهب إلى مركز البريد لأستفسر عن معاش الشهر، وهناك قابلني ساعي البريد وسلَّمني رسالة من إبننا محمد...

وقبل أن تقاطعه؛ تابع كلامه: إنه بخير... لاتقلقين، بخير ولكن... وصَمَتَ. تتبَّعته بنظراتها:

– إيه... ولكن ماذا؟

– لكنه تزوَّج –مقاطعًا– نعم إنه تزوَّج!

أطرقَتْ قليلًا، ثم ابتسمتْ وأخرجتْ زفرة:

– آه منك يا أبا محمد؛ أرعبتني؛ تخيلتُ للحظة أن مكروهًا أصابه –لاقدَّر الله– لقد جعلتَ قلبي يرجف من الخوف! لا تتغيَّر؛ دائمًا تُبالغ. وماذا في ذلك يارجل؟ الحمد

لله أخيرًا أكملَ نصف دينه، مع أني كنتُ أتمنى أن أذهب بنفسي وأخطب له؛ لايهم الآن؛ المهم أن يكون سعيدًا.

كل هذا وأبو محمد مطرقًا رأسه، ولم يشأ أن يقاطعها. لتخرجه من سرحانه بسؤالها:

– ماهذا الحزن يارجل؟ حق لك أن تفرح لا أن تكون مهمومًا هكذا!

رَفَعَ رأسه وهو يعدِل جلسته:

– إنه تزوَّج فتاة أوربية؛ ليست مُسلِمَة، وحسب رأيه بأن لها دينها وله دينه! وليس هذا فحسب؛ لقد قرَّر أن يستقر هناك، ولا يعود إلى أرض الوطن.

أطرقَتْ المرأة بعد أن تغيرت سحنتها وهي تُجاهد دمعة لمَعَتْ في طرف جفنيها. إن محمد ابنها البكر، ولقد حرَصَتْ مدة غيابه على أن تجد له عروسًا بين قريباتها ومعارفها لتفرح به عند حضوره. ويطمئن قلبها عليه؛ كما أطمئنَّتْ على إخوته.

– ولكن مالعمل؟

قالتها وقد رُسِمَتْ ابتسامة على وجهها.

– دَعْ الأمر لله.

قام متثاقلًا:

– ونعم بالله؛ الأمر كله لله، لكن ألم يفكِّر في أولاده مستقبلًا؛ أوليس لنا حقٌ عليه ليبرَّنا في أرذل العمر! وكيف له العيش بعيدًا عن بلده طوال حياته...

قاطعته وهي تحاول مقاومة عبراتها التي خانتها لتنزل على خدها:

– لا تلومه يا أبا محمد فيما فعل؛ فالغلط ليس غلطه؛ بل إنك السبب أم غَفَلَ عن فكرك ذلك؛ كم نصحتك بعدم تدليله الزائد، وكم ألْحَحْتُ عليك أن تودِعه كتاتيب القرأن الكريم؛ ليملأ صدره بشيئٍ من كتاب الله! حتى أنك لم تكن تأمره بالصلاة أو تضربه على تركها؛ كان كل إهتمامك أن يكون متفوقًا في دراسته لتتفاخر به أمام الناس. هل نسيت يا أبا محمد؟ هل نسيت... أنت وحدك السبب في ضياع ابننا؟ لِمَ الحزن الأن؟

سكتَتْ قليلًا كأنها لم تكن تسمع ماتقول، لتتعوَّذ من الشيطان الرجيم. تقدَّمَتْ نحوه ووضعت يدها على كتفه وهي تقول: دع الامر لله فهو بيده صلاح الأمر... قم الغداء صار جاهزًا؟

– طيب... طيب.

قالها وهو يقوم من مكانه، دون النظر إليها لأنه يعلم أن ماقالته صحيح:

– حسبنا الله ونعم الوكيل... عُدِّي لنا المائدة وسأتبعكِ؟ هيا هيا عصافير بطني تزقْزِق!

وأتْبَعَها بنظراته وهي ذاهبة لإعداد الطعام، لكن ما إن خَرجَتْ من الغرفة إلا وأجهَشَ بالبكاء كطفل؛ لايدري مالذي فعله وتذكَّر شبابه وكيف قضاه في العمل، وجمع المال، وكان همِّه؛ أن ينفِق على أسرته بسخاء معتبرًا أن هذا هو دور الأب تجاه أولاده وغفل عن صلاته ولم يكن بالشخص الملتزم؛ لكن قِطار العمر يمر، وهداه الله أن تذوَّق

حلاوة الإيمان، وأصبح ملتزمًا في الصلاة، لهذا شبّ ابنه الصغير محمود مواضبًا على صلاته، وملتزمًا بأوقاتها.

حَمَدَ الله على كل شيء؛ لكن عندما تذكَّر ابنه محمد؛ أصيب بغصّة وندم على تقصيره تجاهه. يجلس إلى مائدة الغداء؛ يتمتم بدعاء لابنه محمد: اللهم وفقه للخير والصواب... آمين.

تنظر إليه وبسمتها المعهودة تزيِّن وجهها، وبنبرتها الحنونة تقول:

– محمد مَعْدَنَه أصيل مهما تَغرَّبْ أو أخذته أحلامه بعيدًا عنّا؛ سيعود للحضن الدافئ يومًا ما... سيعود بإذن الله.

***** تمت بحمد الله*****

عناوين قصص الكتاب

1- مدينة الأنوار .. أوكفيل عبدالحكيم .. الجزائر
2- أسطورة الرمال .. محمد بن ظاهر .. المغرب
3- غُربة .. سوار بو عبانة .. تونس
4- المُذنب .. ياسمين بعطوش .. الجزائر
5- مُداهَمة .. حسن كشاف .. المغرب
6- قصتي القصيرة .. نصير العراقي .. العراق
7- الانتقام .. أشرف الزبيري .. المغرب
8- بداية جنائزيّة .. لميس محمد وهبي .. سوريا
9- لعنة الحب .. نسمة سقوالي .. الجزائر
10- انكسار .. إيمان مصطفى/ رمضان سلمي .. مصر
11- أنا والسيد: دونكان .. محمد حليم .. مصر
12- السور .. هشام وهبي .. المغرب
13- القمر الدامي .. رمضان سلمي برقي .. مصر
14- ورقة .. أحمد جمال الدين رمضان .. مصر
15- خطأ رومانسي .. طارق قديس .. الأردن
16- نوبة هستريا .. رحمة خطار .. الجزائر
17- عودة ثم غياب .. رضوى اسماعيل .. مصر
18- رقاص أنفال .. حكاية صبية .. الجزائر
19- البحث عن زوج .. عائشة بناني .. المغرب
20- الحصاد .. فاطنة الباي .. الجزائر

قصص وحكايات
مجموعة مؤلفين
دار قصص وحكايات للنشر الالكتروني

دار
قصص وحكايات
للنشر
الإلكتروني